

التأصيل في طلب العلم

لفضيلة الشيخ

محمد بن هادي المدخلي

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المطلبي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:
 (لَيْسَ بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنْ طَلْبِ الْعِلْمِ) قِيلَ: وَلَا الْجِهَادُ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: (وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).
 وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: (مَثَلُ الَّذِي يَطْلُبُ الْعِلْمَ بِلا حُجَّةٍ كَمَثَلِ حَاطِبٍ لَيْلٍ
 يَحْمَلُ حُرْمَةً حَطَبٍ وَفِيهِ أَفْعَى تَلْدَعُهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي).
 وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: (مَنْ لَا يُحِبُّ الْعِلْمَ فَلَا خَيْرَ فِيهِ، وَلَا يَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
 مَعْرِفَةٌ وَلَا صِدَاقَةٌ).
 (مناقب الشافعي رَحِمَهُ اللهُ) للبيهقي رَحِمَهُ اللهُ (٢ / ١٣٨ - ١٤٤ ط: دار التراث، ت العلامة
 السيد أحمد صقر رَحِمَهُ اللهُ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُونَنَّ إِلَّا وَآنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي

نَسَاءَ لُونِ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ؕ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ، فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد..

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد..

فقد سمعنا -يا معشر الإخوة والأبناء- عنوان هذه الكلمة، وهو عنوان مهم، والسؤال عنه يتكرر دائما في الندوات والمحاضرات والدروس واللقاءات؛ وذلك لحرص الناس على طلب العلم، وحرص الناس على تحصيل الخير، فالسؤال هذا يتكرر وبمناسبة ذلك وسببه وبمناسبة هذه الدورة التي تقام كل عام في هذا المسجد المبارك العتيق الوطيد مسجد بني سلمة بمدينة رسول الله ﷺ، والذي اشتهر عند الناس على الألسن في العصر المتأخرة بـ (القبليتين) وإلا فهو مسجد بني سلمة، بمناسبة الدورة التي تقام فيه - وهي دورة علمية شرعية تُعنى بتأصيل العلم لدى طلابه - رأى القائمون على هذه الدورة - جزاهم الله خيرا - الكلام حول هذا الموضوع؛ وذلك ليعم الانتفاع، ولكونه مناسبة حاصلة قائمة؛ فأجبناهم - وفقهم الله - ونستعين الله ﷻ ونستمد منه التوفيق والهداية إلى الرشد.

معشر الإخوان.. إن العلم بشرع الله ودينه وما أنزله على رسوله ﷺ لا يعدله شيء، فهو أفضل علم

يُطَلَّبُ، وَأَعْلَى رُتْبَةٍ يُسْعَى إِلَيْهَا، وَكُلُّ عِلْمٍ سِوَاهُ فَهُوَ خَادِمٌ لَهُ.

فَأَنْتَ تَقُولُ مِثْلًا عِلْمُ الْآلَةِ: مِنْ لُغَةٍ، وَنَحْوٍ، وَصَرْفٍ، وَحِسَابٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ هَذِهِ الْعِلْمُ عِلْمُ آلَةٍ تَسْتَعِينُ بِهَا عَلِيُّ فَهْمُ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي سَلَكَتَ فِي سَبِيلِ التَّحْصِيلِ لَهُ.

وَكَذَلِكَ إِذَا مَا جِئْتَ إِلَى الْأَصُولِ فِي جَمِيعِ الْفُنُونِ -أَصُولِ فِقْهِ وَأَصُولِ تَفْسِيرِ وَأَصُولِ حَدِيثِ- فَإِنَّهَا كَذَلِكَ عِلْمُ آلَةٍ تَسْتَعِينُ بِهَا عَلِيُّ الْفِقْهِ، وَعَلِيُّ مَعْرِفَةِ الصَّحِيحِ مِنَ الضَّعِيفِ، وَتَعْرِفُ بِهَا كَلَامَ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- نَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ وَمُجْمَلَهُ وَمُبِينَهُ وَمُطْلَقَهُ وَمُقَيَّدَهُ وَهَكَذَا؛ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَصُولُ يُقَالُ لَهَا: عِلْمُ آلَةٍ؛ وَإِنَّمَا شَرُفَتْ بِسَبَبِ شَرَفِ الْمُتَوَصَّلِ إِلَيْهِ بِهَا؛ فَمَا عَدَاهَا دُونَهَا.

وَبِهَذَا نَخْلُصُ إِلَى أَنَّهُ لَا أَفْضَلَ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَلَا أَعْظَمَ مِنْهُ، فَيَجِبُ عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ الْإِعْتِنَاءُ بِهَذَا الْجَانِبِ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نَرْبِي أَبْنَاءَنَا عَلَى ذَلِكَ، وَبِنَاتِنَا أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمَغْنَمُ وَالْمَرْبِيحُ، وَمَا عَدَاهُ مِنْ عِلْمِ الدُّنْيَا هِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

فَالْأَصْلُ إِنَّمَا هُوَ السَّعْيُ لِتَحْصِيلِ الْفَوْزِ وَالسَّعَادَةِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ شَرَعِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وَمَعْرِفَةِ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ ﷻ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ.

وَمَا دَامَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بَدَّ لِلطَّالِبِ مِنْ أَنْ يُوَصَلَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ تَرْقِيهِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَا يَصْبُو إِلَيْهِ؛ وَحَتَّى يَحْصُدَ الثَّمَرَ الْمَرْجُوءَةَ بِكُلِّ ثِقَةٍ وَاقْتِدَارٍ، وَبِكُلِّ ثَبَاتٍ وَجِدَارَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

فَالْتَأْصِيلُ الْعِلْمِيِّ الشَّرْعِيِّ:

أَوَّلًا: التَّأْصِيلُ [لُغَةً]: مَصْدَرٌ، مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِكَ (أَصَلْتَهُ تَأْصِيلًا)؛ أَي: جَعَلْتَهُ لَهُ أَصْلًا ثَابِتًا يُبْنَى عَلَيْهِ، فَأَيُّ شَيْءٍ تَرِيدُ أَنْ تُؤْصِّلَهُ فَالْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْنَا؛ تَجْعَلُ لَهُ أَصْلًا ثَابِتًا تَبْنِي عَلَيْهِ، فَأَصْلُ الدَّارِ أَسَاسُهُ الَّذِي تَقِيْمُ الدَّارَ عَلَيْهِ، وَأَصْلُ الْجِدَارِ كَذَلِكَ، وَأَصْلُ الشَّجَرَةِ جَذُورُهَا الَّتِي تُضْرَبُ فِي عَمَقِ الْأَرْضِ، فَأَسْفَلُ كُلِّ شَيْءٍ يُقَالُ لَهُ: أَصْلٌ.

قَالُوا: قَعْدٌ فِي أَصْلِ الْجَبَلِ، وَأَصْلُ الْحَائِطِ، يَعْنِي: أَسْفَلُهُ، ثُمَّ كَثُرَ هَذَا الْإِسْتِعْمَالُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ فَأَصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ مَثْبُتٌ يُقَالُ لَهُ: أَصْلٌ، فَأَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ بَعْدَ ذَلِكَ هُوَ: مَا يَسْتَنْدُ ذَلِكَ الشَّيْءُ فِي وَجُودِهِ إِلَيْهِ.

فَالْوَلَدُ -مِثْلًا- أَصْلُهُ الْأَبُ، وَالْجَدُّوَلُ أَصْلُهُ النَّهْرُ؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ: فَلَانٌ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ وَلَا فَصْلٌ؛ يَعْنِي: لَيْسَ لَهُ أَبٌ يَسْتَنْدُ فِي نَسَبِهِ إِلَيْهِ.

فهكذا العلم لا بد أن يكون له أصل يستند في النسب إليه، فكما أن الأب أصل للولد، والنهر أصل للجدول، فهكذا أصل كل شيء هو قاعدته، وأصل كل شيء ما بنيت عليه.

فإذا تقرّر ذلك فإنه عند الطالب حينئذ تتم هذه المعرفة التي تورثه القناعة الآتية، ما هي القناعة هذه؟ هي: أنه لا يمكن أن يصل إلى العلم ويعرف العلم ويعرف العلم من غير أصل يسير عليه ويستند إليه، لا يمكن أن يصل إلى العلم ويعرف العلم ويجني العلم من غير أصل يستند إليه ويسير عليه؛ إذ الأصل هو ما ذكرنا:

فالأصل ما عليه غيره بُني والفرع ما على سواه ينبنى^(١)

فالفرع هو العلم الذي تحصله أنت في أي فن؛ تبنيه على أصله الذي فهمته وحصلت قواعده وبنيتها أول الأمر؛ فحينئذ تقيم هذا البناء بعد ذلك في هذا الفن عليه.

قال الله -جل وعلا-: ﴿الْم تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم] الآية.

فهذه الشجرة التي طالت ونافت ووصلت السماء في العلو أثمرت؛ لأن لها أصلاً ثبتت عليه وهو هذه البذرة التي تلقيها في الأرض فتدفعها فيها ثم تطلع بعد ذلك منها هذه الأغصان، تبدأ ضعيفة ثم تقوى قليلاً قليلاً، ثم تكبر ثم تكون شجيرة، ثم شجرة تطول ولها فروع كثيرة وأغصان، ثم يأتي منها الظل الوارف والثمر اليانع الجني.

ومن هذا نخلص إلى أن التأصيل في العلم الشرعي هو: أن تجعل لكل فن من فنونه أصلاً ثابتاً تبنيه عليه؛ هذا هو التأصيل في العلم الشرعي.

فمثلاً: التفسير؛ لا بد من معرفة أصول التفسير؛ لأن العلوم -سيأتي معنا بيانها- ترجع في أصولها إلى ثلاثة كما نص أهل العلم، فأولها التفسير؛ فلا بد من أن تعلم أصول هذا التفسير؛ حتى تعرف كيف تفسر كلام الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فلا بد من قراءة كتاب في أصول التفسير نثراً أو نظماً حتى تهضمه على مختص في هذا، مفيد لك ناصح لك؛ فبعد ذلك تنطلق منه.

وهكذا أصول الحديث، وهكذا أصول الفقه، وهكذا قل بقية العلوم، وأنواع الفنون.

(١) من الرجز، وهو البيت الحادي عشر من نظم العمري طي رحمه الله للورقات.

فعليك يا طالب العلم بالحرص في التَّحْصِيلِ عَلَى الْأُصُولِ أَوْلَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُصُولَ لَا يَبْدَلُكَ مِنْ إِتْقَانِهَا وَضَبْطِهَا، فَإِذَا أَتَقَنْتَ وَضَبَطْتَ أَوْرَثَكَ ذَلِكَ تَيْسِيرًا وَسَهُولَةً الْوُصُولِ، فَإِنَّ الْوُصُولَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْأُصُولِ، وَكَلْنَا نَعْلَمُ مَنْظُومَةَ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَثِيمِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشَّهِيرَةَ الَّتِي جَاءَ فِيهَا بِقَوَاعِدِ وَأُصُولِ الْعِلْمِ وَتَكَلَّمَ فِيهَا فَإِنَّهُ قَالَ فِيهَا:

وَبَعْدُ فَالْعِلْمُ بِحُورٍ زَاخِرَةٍ لَنْ يَبْلُغَ الْكَادِحُ فِيهِ آخِرَهُ
لَكِنَّ فِي أُصُولِهِ تَسْهِيلًا لِنَيْلِهِ فَاحْرُضْ تَحْدُ سَبِيلًا
اغْتَنِمِ الْقَوَاعِدَ الْأُصُولَا فَمَنْ تَفْتَهُ يُحْرَمَ الْوُصُولَا^(١)

العلم بحور متعددة وزاخرة، ماؤها كثير، يغرق فيها الإنسان إذا لم يكن سبَّاحًا ماهرا، صاحب سفينة يحسن القيادة، فحينئذ لا يمكن أن يبلغ فيه آخره لسعة هذه البحور، فحينئذ لا بُدَّ أن يختصر على نفسه ويريح نفسه بتحصيل ما يعينه ويسهل له الوصول، فهذا في معرفته لأصوله.
فأصول العلوم التي يركبها طالب العلم في هذه البحور هي التي تسهل له السبيل في قطع هذه البحار الواسعة المتلاطمة؛ فلذلك قال:

اغْتَنِمِ الْقَوَاعِدَ الْأُصُولَا فَمَنْ تَفْتَهُ يُحْرَمَ الْوُصُولَا
فَهَذِهِ الْقَوَاعِدُ الْأُصُولِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ فِي كُلِّ فَنٍّ هِيَ بِمَثَابَةِ

السنن التي يركبها الناس في قطع البحار المحسوسة، فطلبة العلم يأتون بهذه الأصول ليقطعوا بها مشوار طلب العلم، ولهذا يقول صاحب الميمية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَوَقَدْ أَتَيْنَا عَلَيْهِ فِي شَرْحِنَا:

وَبِالْمُهْمِّ الْمُهْمِّ ابْدَأْ لِتُنْذِرَكَهُ

فلا بد أن تبدأ بالمهم، والمهم هنا أصول العلوم التي تُبْنَى عَلَيْهَا الْعُلُومُ.

فعلى طالب العلم أن يجتهد في هذا، وعلى طالب العلم أن يحرص على هذا، وعلى طالب العلم أن يختار في هذا، ثلاثة أشياء؛ كيف ذلك؟

يجتهد في هذا ببذل وسعه في تأصيل نفسه في العلم الشرعي في الفنون الشرعية.

ثم يحرص على ذلك، لا يميل إلى الكسل؛ فإنه إذا مال إلى الكسل أورثه الانقطاع عن العمل،

(١) من الرجز، الأبيات (٥-٧) من المنظومة.

(٢) من بحر البسيط، البيت (٧٢) من ميمية الشيخ حافظ الحكيمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْوَصَايَا وَالْأَدَابِ الْعِلْمِيَّةِ وَتَمَامِهِ: (وَقَدْ أَمَّا النَّصَّ وَالْأَرَءَاءَ فَاتَّهَمَ).

والعمل هنا السير والمواصلة في العلم، فإنه يريد أن يصل إلى النهاية قبل أن يبدأ ويشرع في البداية!
وعليه أن يختار في هذا، والاختيار في جانبين وسيأتي معنا - إن شاء الله - بيانهما:
الجانب الأول: جانب الكتاب المقروء.

الجانب الثاني: جانب العالم الذي يقرأ عليه أو الأستاذ الذي يقرأ عليه، فلا بد له من ذلك.
فلا بد من الاجتهاد والحرص والاختيار - حسن الاختيار - في هذا الجانب، فلهذا من وفق في هذا فإنه يزوم ويصل إلى ما قصد، يروم الخير ويحصل على الخير ويصل إلى ما قصد.
فنحن نوصي أنفسنا وإخواننا بالاجتهاد في هذه الأمور الثلاثة: الاجتهاد، والحرص على ذلك، وحسن الاختيار، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - معنا بيان ذلك كله، إنما ابتداءً نقول هذا، وينبغي لطالب العلم أن يكون في هذا الجانب على ذكر، وأن يتذكر دائماً وأبداً أن المؤصل في هذا الباب هو الذي يظفر وغير المؤصل هو الذي يجهد ويتعب ولا يجني ثمره، فإن هذا الأصل الثابت لا يضيرك أن تكثر من البناء عليه، وأما إن كان الأصل ضعيفاً أو غير موجود فإنه لا يمكن أن يقوم البناء عليه.
وإذا كان طالب العلم موفقاً - ونسأل الله جل وعلا لنا ولكم جميعاً التوفيق - فإنه لا يمكن أن يتخطى هذا الذي ذكرنا، فيبدأ الإنسان بتأصيل نفسه.

ويعلم أنه في طلبه للعلم كالطفل، ليعلم طالب العلم أنه في طلبه للعلم كالطفل؛ فإن الطفل في نموه يمر بمراحل، وهكذا طالب العلم يمر بمراحل، وأنتم ترون الآن فيما هو مقرر طبيعة؛ لا يمكن أن يؤتى بابن السابعة والسادسة ويجعل في الجامعة! هل يمكن هذا معشر الإخوة والأبناء؟ لا يمكن، وذلك لأنه لا شيء عنده أولاً، وثانياً: عقله لا يحتمل ما يُعطاه طالب الجامعة.

فهكذا طالب العلم، لا بد أن يبدأ أولاً بتأصيل نفسه بالتربي قليلاً قليلاً، فيبدأ الطفل صغيراً لا ينقلب، ثم ينقلب، ثم يحبو، ثم يقف، ثم يخطو، ثم يمشي ضعيفاً، ثم يتوثق مشيه، ثم يسرع، ثم يجري بعد ذلك.

هكذا طالب العلم يبدأ أول ما يبدأ في صغره ضعيفاً، ثم يحبو، ثم يقف، ثم يخطو ضعيفاً، ثم يمشي ضعيفاً، ثم يتوثق مشيه، ثم يمشي سريعاً، ثم يجري.

وهذا بحسب عمره الزمني والعلمي، وإذا كان هذا في الأمر المحسوس في حياة الإنسان فمثله - كما قلنا - تماماً في الأمر المعنوي في حياة الإنسان العلمية.

نبدأ فنقول حينئذ: إن (العلم بحورِ زاخرة) كما قلنا، و (لن يبلغ الكادح فيه آخره)، ولكن عليه أن يبدأ بهذه الأصول فينبني فيها ويجتهد فيها.

فطالب العلم إن كان بدأ بعلمه وتلقيه صغيراً فأوّل ما يُبدأ معه بالتلقين، وهذا (التلقين) الآن الناس انقسموا فيه على قسمين، وبالأمس القريب الخميس وأنا أسمع في الإذاعة ذمّاً له وللأسف؛ يرونه من عيوب المدرسة هذه، ويرون التلقين من المدرسة (الكلاسيكية) كما يقال؛ وسمعت ذلك بالأمس القريب، في الضحى، في برنامج يُتكلم فيه على أن من عيوب المدرسة في عملية التعليم: التلقين!، فيعيون عليك أن تحشّو عقل الطفل بالعلم، بالمعلومات!

طيب، هو في هذه المرحلة لا يفهم، عنده تفكير محدود وجرأة محدودة وقدرة محدودة؛ فأنت تعطيه ما يناسبه في هذا؛ فإن الله ﷻ يقول: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيَْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتُبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تُدْرَسُونَ﴾ [آل عمران]، وهذا قد فسره المفسرون ونقلوا فيه عن ابن عباس وغيره من السلف - في هذا الجانب - أن المعنى المراد هو: تربية العالم لمن يُعلم بصغار العلم قبل كباره^(١).

فالطفل في هذه المرحلة لا يحسن الفهم، الفهم عنده قليل والإدراك عنده قليل، ما نقول: ما هو موجود، موجود لكنه ضعيف، فأنت تستغل فيه ماذا؟ تستغل فيه الجانب القوي؛ والجانب القوي عند الطفل: الحفظ في صغره؛ فإن الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر، وقد رددت على مسامعكم حتى أسأمتكم ربما:

أَرَانِي أَنَسَى مَا تَعَلَّمْتُ فِي الْكِبَرِ وَلَسْتُ بِنَاسٍ مَا تَعَلَّمْتُ فِي الصَّغَرِ
وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا بِالتَّعَلُّمِ فِي الصَّبَا وَمَا الْحِلْمُ إِلَّا بِالتَّحَلُّمِ فِي الْكِبَرِ
وَلَوْ فُلِقَ الْقَلْبُ الْمُعَلَّمُ فِي الصَّبَا لِأُنْفِي فِيهِ الْعِلْمُ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ
وَمَا الْعِلْمُ بَعْدَ الشَّيْبِ إِلَّا تَعَسَفٌ إِذَا كَلَّ قَلْبُ الْمَرْءِ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ
وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا حُسْنُ عَقْلِ وَمَنْطِقِ فَمَنْ فَاتَهُ هَذَا وَهَذَا فَقَدْ دَمَرَ^(٢)

(١) قال أبو عبد الله البخاري رحمه الله: (يُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ)، وعلّق عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ الرَّبَّانِيَّ هُوَ الْحَكِيمُ الْفَقِيهَ، انظُرِ الْجَامِعَ الصَّحِيحَ (كتاب العلم باب: العلم قبل القول والعمل، ج١، ص٢٠٠، ط: دار الحديث، مع الفتح).

(٢) من بحر الطويل، رواها ابن عبد البر رحمه الله في جامع بيان العلم وفضله (١/٣٠٨ ط ابن الجوزي) عن أبي عبد الله إبراهيم بن محمد الملقب بـ (نُفْطَوَيْه) أحد أئمة النحو (ت ٣٢٣) رحمه الله، من قوله، وصدُرَ البَيْتِ الأخير فيه:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا اثْنَانِ عَقْلٌ وَمَنْطِقٌ

فـ (العلم في الصغر كالنقش في الحجر، والعلم في الكبر كالكتابة على الماء)^(١)؛ لأن الحافظة عند الكبير تضعف، أما عند الصغير فهي في النمو، في الإقبال، فأنت تستغل الطالب في صغره إن كنت معلمًا له بالتلقين، وتبتدئ معه بذلك، فعلى إخواننا وأبنائنا المربين أن يحرصوا على هذا.

لماذا نحرص الآن على أبنائنا ندفعهم إلى تحفيظ القرآن وهم صغار؟

- لأن الحافظة عندهم قوية؛ هذا أولاً.

- وثانياً: لم تتشت أذهانهم بأمور الدنيا وشواغل الدنيا التي تُضعف الحفظ، أليس كذلك؟ هكذا؛ فالأمر لهذين السببين يجعل الطفل قويا في حفظه، فأنت تدفع به إلى المحفِّظ، إلى الملقن، فسمي (محفِّظاً) وسمي (مُلقِّناً)^(٢)؛ لأنه يلقن الطالب في هذا السن كتاب الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ويحفظه هذا الكتاب.

فطالب العلم إن بدأ في صغره فعليه أن يعتني بالحفظ أولاً؛ فيحفظ كتاب الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

ثم بعد ذلك يحفظ ما يتيسر معه من العلوم التي تعينه على إتقانه؛ وأهمها التجويد، فتقارن تحفيظ الكتاب لهؤلاء الأطفال بأرجوزة في التجويد، أو نثر في التجويد، والأرجوزة أو المنظومة أحسن، فيحفظ الطالب هذه المعلومات مع كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وأحسن ما يُعطى الأطفال الذين يُبدأ معهم في التعليم: (تحفة الأطفال)؛ فهذه التحفة هي تحفة وهي هدية للأطفال، فيحفظها الطفل في صغره تعينه على كتاب الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وفيها يقول ناظمها:

سَمِيَّتُهُ بِتُحْفَةِ الْأَطْفَالِ عَنْ شَيْخِنَا الْمِيهِيِّ ذِي الْكَمَالِ

أَرْجُو بِهِ أَنْ يَنْفَعَ الطُّلَابَا وَالْأَجْرَ وَالْقَبُولَ وَالشُّوَابَا

وبدأ معه بأصول الفن هذا، فقال: (أحكام النون الساكنة والتنوين:

(١) يُرَوَى مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا يَصِحُّ، رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ فِي الْكَبِيرِ كَمَا فِي الْمَجْمَعِ (١/ ١٢٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَإِنْ عَبْدُ الْبَرِّ رَضِيَ اللَّهُ فِي الْجَامِعِ (١/ ٣٠٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَعْنَاهُ، وَأُورِدَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَضِيَ اللَّهُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ (كتاب العلم، باب تعلم العلم في الصبا: ح ٤٣٥)، وَاظْهَرَ فِي حَرْفِ الْعَيْنِ مِنْ «كشَفَ الْخَفَاءِ» لِلْعَجْلُونِيِّ (ح ١٧٥٧)، وَرَوَى الْقِطْعَةَ الْأُولَى مَوْقُوفًا عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي الْجَامِعِ (١/ ٣٠٤).

(٢) حَتَّى اشْتَهَرَ مِنَ الْأَعْلَامِ الْحَافِظُ (ابْنُ الْمَلِّقِنِ) عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَنْصَارِيُّ (ت ٨٠٤) رَضِيَ اللَّهُ، نُسِبَ إِلَى زَوْجِ أُمِّهِ الَّذِي كَانَ يُلَقِّنُ الْقُرْآنَ، وَكَانَ يَعْضَبُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَكْتُبُهُ وَإِنَّمَا يَكْتُبُ (ابْنُ النَّحْوِيِّ) نَسْبَةً إِلَى أَبِيهِ، وَهُوَ الْأَصْلُ.

لِلنُّونِ إِنْ تَسَكَّنْ وَلِلتَّنْوِينِ أَرْبَعُ أَحْكَامٍ فَخُذْ تَبْيِينِي
فَالأَوَّلُ الإِظْهَارُ قَبْلَ أَحْرَفِ لِلْحَلْقِ سِتُّ رُتَبَاتٍ فَلْتَعْرِفِ
هَمْزُ فَهَاءٍ ثُمَّ عَيْنٌ حَاءٍ مُهْمَلَتَانِ ثُمَّ عَيْنٌ خَاءٍ^(١)

يترنم بها الأطفال، سهولة عليهم في الحفظ، ويعرفهم الملقن ما معنى هذه الكلمات: الإظهار كذا وحروفه كذا؛ الإدغام كذا وحروفه كذا؛ الإقلاب كذا وحروفه كذا؛ الإخفاء كذا وحروفه كذا حتى تنتهي أحكام النون الساكنة والتنوين، ثم يأتي بعد ذلك.. إلى أن يأتي عليها فيحفظها، وهو قسّمها قال:

وَبَعْدُ هَذَا النَّظْمُ لِلْمُرِيدِ فِي النُّونِ وَالتَّنْوِينِ وَالمُدُودِ
ثلاثة أقسام، هذه تناسب الطفل في صغره: (في النون والتنوين والمدود)، وبعد ذلك يتوسع قليلا قليلا في علم التجويد.

فهذه الثلاثة الأشياء يضبط فيها الطالب في صغره، فنحن نبدأ مع طالب العلم في صغره بتلقيه وتحفيظه كتاب الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، ثم ما يعينه على إتقانه كالتجويد، لا بد منه؛ فإن اللحن على قسمين: لحن ظاهر جلي ولحن باطن خفي:

- فاللحن الظاهر الجلي هو: الذي يكون في الحركات وفي الإعراب؛ وهذا كل أحد يدركه ممن استقام لسانه، أما من لم يستقم لسانه فلا عبرة به؛ فهذا واضح جلي.

- اللحن الباطن الخفي: هذا الذي يتميز فيه أهل العلم، لا ينتقده إلا من عنده علم، لا يعرف النقص فيه إلا من كان عالما به، فنحن نعطي الطالب الطفل في صغره، وأيضا الطالب في ابتدائه ولو كبر قليلا، نعطيته حتى يستقيم في قراءته على حفظ كتاب الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

فأول المراتب للصغار: التلقين، لا بد من أن يكون كذلك.

ثم نعطيته من متون العلوم على حسب تدرجك معه، فأنت المدرّس له، وأنت المعلم له، وأنت الموجه له؛ فأنت بمثابة الأب له، بل أنت أب الروح وأب الروح له من الأثر ما هو أعظم في بعض الأحيان من أب الجسد؛ فعليك أن تحرص أيها الطالب على هذا؛ أن تتدرج وأن تترقى في هذا مع طلبتك وتبدأ بهم على هذا النحو الذي ذكرنا.

وإذا فرغ الطالب أو انتهى الطالب من هذه المرحلة أعطيته أوسع من ذلك.

(١) من الرجز، الأبيات (٤-٨) والآتي (٣)، وناظمها سليمان الجمزوري.

تأتي بعد ذلك إلى أصول الدين؛ بعد كتاب الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- تعطيه كتابا في أصول الدين، وهذا الكتاب يكون بدءًا بالمختصرات.

فمثلا: تبدأ مع طالب العلم بـ «القواعد الأربع» في العقيدة، ثم تُشَيِّ بعد ذلك -بعد ما يتقن- بـ «الأصول الثلاثة»، ثم تنتقل بعد ذلك إلى ماذا؟ تنتقل إلى «كتاب التوحيد»، ثم تنتقل بعد ذلك إلى «كشف الشبهات»؛ لأنه بعد ما يتعلم طالب العلم هذا، تَرِدُ عليه بعض الإشكالات، وربما جلس في بعض المجالس التي يورَد فيها عليه بعض الإشكالات، أو يسمع بعض الإشكالات، فتعطيه «كشف الشبهات»، ثم بعد ذلك يأتي إلى «الواسطية»، ثم «تلخيص الحموية»، ثم «الحموية الكبرى»، ثم بعد ذلك لا يضيره، هذا مثال، وسنتطرق إن شاء الله تعالى لتفصيله كاملا -بإذن الله تعالى-.

فالشاهد هو أن الطفل يُبدأ معه بالتلقين أولا، ثم يُتدرج معه، فالحافظة عنده والإقبال عنده، يتدرج معه في العلوم، وهذا باب مهم، وما نجح الأولون وأفلحوا ولا صاروا أئمة إلا بذلك وهذا نعرفه جميعا:

فَاَحْفَظْ فَكُلُّ حَافِظٍ إِمَامٌ^(١)

وهؤلاء لا يريدون لك أن تحفظ!، لم؟ لأنك إن حفظت صرت شوكة في حلقهم، كلما أوردوا شيئا عليك هدمته بفضل الله -تبارك وتعالى- من محفوظك، لا تقعد في حيرة وفي اضطراب؛ فالحافظ متسلح بالأدلة ومتسلح بالعلم ومتسلح بما ينقض به الشبه التي يرسلها المشككون، فهذا الذي ينفعه.

فالحفظ معك هو كالمصروف الذي في جيبك، مصروف النفقة، أما الذي في الكتب فهو رأس المال الذي تدخره في الصناديق، ولهذا يقولون: (اجعل محفوظك كالنفقة، واجعل ما في الكتب رأس مال ترجع إليه)^(٢).

عِلْمِي مَعِي أَيَنَّمَا يَمَّمْتُ أَحْمِلُهُ قَلْبِي وَعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنٌ صُنْدُوقِ
إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ^(٣)

(١) من الرجز، عجز البيت (٣٠) من المنظومة الرحبية في الفرائض.

(٢) عن الخليل بن أحمد رحمته الله في جامع بيان العلم وفضله (١/٢٨٣)، رقم ٤٢٦، ط: ابن الجوزي.

(٣) من البسيط، أوردهما الماوردني رحمته الله في أدب الدنيا والدين (٦٦ ط دار اقرأ)، قال: (وأشدت عن الربيع الشافعي رحمهما الله) ثم ذكرهما. لتكون في وقت الشدة كما قال ابن حزم رحمته الله حين أحرقت كتبه: [الطويل]

فإن تُحْرِقُوا الْقِرْطَاسَ لَا تُحْرِقُوا الَّذِي تَصَمَّمَهُ الْقِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيرٌ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رِكَائِبِي وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزَلَ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي

هَذَا هُوَ؛ أَمَا أَنْ تَتَعَلَّمَ تَكْتُبُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَحْفَظَ فَهَذَا كَيْفَ بَعْدَ ذَلِكَ تَنْقُلُ لِلنَّاسِ الْفَهْمَ! تَتَفَهَمُ فِي مَاذَا؟ لَا شَيْءَ؛ فَلَا بَدَّ مِنْ هَذَا الْحِفْظِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْقَائِلُ:

تَكْتُبُ الْعِلْمَ فَنُتَلَّقِي فِي سَفَطٍ ثُمَّ لَا تَحْفَظُ لَا تُفْلِحُ قَطُّ
إِنَّمَا عِلْمُكَ مَا تَحْفَظُهُ مَعَ فَهْمٍ وَتَوَقُّقٍ مِنْ غَلَطٍ^(١)

فَأُولُ دَرَجَةِ مَا هِيَ؟ الْحِفْظُ يَا إِخْوَتِي؛ فَلَا بَدَّ مِنْ مَحْفُوظٍ.

جاء في «ألفية السَّند»، وأنا كنت إلى عهد قريب لا أظنه إلا كلام المرتضى الزبيدي؛ لأنني ما راجعته وإنما اكتفيت بموطن الشاهد منها؛ فلما رجعت إلى الألفية أتصفحها فإذا به يعزوه إلى جامع بيان العلم وفضله، ولكنه عزاه إلى طرّة جامع بيان العلم وفضله للحافظ ابن عبد البرّ، وليس هذا موجودا في الجامع، فلعله وقف عليه في طرّة الكتاب أو في بعض أجزاءه على حسب تقسيم المخطوط، فهذا الرجل الزبيدي دخل مصر وكانت مليئة بالكتب، ومن ضمنها كتاب «جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله» للحافظ ابن عبد البرّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، فإنه قد وجد على طرته لابن عبد البر بسنده يقول:

رَوَى ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ذِي الْإِتْقَانِ فِي طَرَّةٍ مِنْ جَامِعِ الْبَيَانِ
أَرْجُوزَةً تُعْجِبُ مَنْ رَأَاهَا إِلَى الْإِمَامِ اللَّوْلُؤِيِّ عَزَاهَا
مَنْظُومَةً كَالجَوْهَرِ الْمَكْنُونِ وَقِيلَ عَزَوْهَا إِلَى الْمَأْمُونِ
أُورِدْتُهَا هُنَا لِحُسْنِ سَوْقِهَا لِلغَائِصِينَ فِي بَحَارِ ذَوْقِهَا
وَنَصَّهَا مِنْ بَعْدِ حَمْدِ اللَّهِ مُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِفْظَ وَالْإِتْقَانَ وَالتَّفَهُّمَ

دَعُونِي مِنْ إِخْرَاقِ رَقٍّ وَكَاغِدٍ وَقُولُوا بِعِلْمٍ كَثِيرٍ النَّاسُ مِنْ يَدْرِي
وَإِلَّا فَعُودُوا فِي الْمَكَاتِبِ بِسُدَاةٍ فَكَمْ دُونَ مَا تَبْتَغُونَ لَه مِنْ سِتْرِ

(سير أعلام النبلاء) لِلدَّهْبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ (١٨/٢٥ ط الرسالة).

(١) مِنَ الرَّمْلِ، نَسَبَهُمَا الصَّفْدِيُّ فِي «الوافي بالوفيات» إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْمَازِنِيِّ الْغَرْنَاطِيِّ (ت ٥٦٧) حَيْثُ تَرَجَمَهُ (٣/٢٠٢ ط دار

إحياء التراث)، وَصَدْرُ الْبَيْتِ الثَّانِي فِيهِ: (إِنَّمَا يُفْلِحُ مَنْ يَحْفَظُهُ). لَكَيْلًا تَكُونَ كَمَنْ وَصَفَ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ: [الرَّمْلُ] صَاحِبُ الْكُتُبِ تَرَاهُ أَبَدًا
غَيْرِ ذِي فَهْمٍ وَلَكِنْ ذَا غَلَطٍ كَلَّمَا فَتَشَّتْهُ عَنْ عِلْمِهِ
قَالَ عِلْمِي يَا خَلِيلِي فِي سَفَطٍ فِي كَرَارِيْسٍ جِيَادٍ أَحْكَمَتْ
وَبِخَطِّ أَيِّ خَطِّ أَيِّ خَطِّ فَإِذَا قُلْتَ لَهُ هَاتِ إِذْنُ
حَاكَ لِحَيْثِهِ جَمِيعًا وَأَمْتَحَطُ

انظر: (تحسين الفصح وتقيح الحسن) للثعالبي (٨٣ ط وزارة الأوقاف العراقية).

وَالْعِلْمُ قَدْ يُرْزَقُهُ الصَّغِيرُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَيُحْرَمُ الْكَبِيرُ
إِلَى أَنْ قَالَ:

وَأَفْضَلُ الْعُلُومِ عِلْمٌ يَفْتَرِبُ بِهِ الْفَتَى مِنْ رَبِّهِ فِيمَا يُحِبُّ
فَلْيَبْدُلِ الْجُهْدَ بِمَا يَزِيدُهُ نُورَ الْهُدَى فِي كُلِّ مَا يُفِيدُهُ
وَبِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمُّ يَنْتَقِي مِنْ كُلِّ فَنٍّ مَا يُفِيدُ مَا بَقِيَ
فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ وَبَعْضُهَا بِشَرَطِ بَعْضٍ مُرْتَبِطٌ

(فإن أنواع الفنون تختلط) وهذا مهم جدا، (وبعضها بشرط بعض مرتبط)، ثم جاء إلى هذا الذي نريد

بيانه فقال:

فَمَا حَوَى الْغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَةٍ شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهُ
وَيُرْوَى (فَمَا حَوَى الْغَايَاتِ) بِالْجَمْعِ.

بِحِفْظِ مَنْ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدِ نَاصِحٍ
وَيُرْوَى: (تَحُلُّهُ عَلَى مُفِيدٍ) أَي: تُفَكِّكُهُ وَتَتَفَهَّمُ فِيهِ.

ثُمَّ مَعَ الْفُرْصَةِ فَابْحَثْ عَنْهُ حَقَّقْ وَدَقِّقْ وَاسْتَمِدَّ مِنْهُ
فَاسْتَمِدَّاكَ مَعَشَرَ الطَّالِبِ لِلْعِلْمِ مِنْ أَيْنَ؟ أَسْأَلُكُمْ مِنْ أَيْنَ؟ مِنَ الْمَحْفُوظِ؛ الْآنَ أَنْتَ مَاذَا:

بِحِفْظِ مَنْ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدِ نَاصِحٍ
أَوْ عَلَى الرِّوَايَةِ الْآخَرَى لِلْبَيْتِ: (تَحُلُّهُ عَلَى مُفِيدِ نَاصِحٍ)، (ثُمَّ مَعَ الْفُرْصَةِ فَابْحَثْ عَنْهُ) هَذَا أَوْلَا؛ ثُمَّ
قَالَ: (حَقَّقْ وَدَقِّقْ) ثُمَّ قَالَ: (وَاسْتَمِدَّ مِنْهُ).

وهذا الذي قد سبق الكلام عنه في قوله:

اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِفْظِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّفَهُّمِ^(١)
ويروى فيه: (والحفظ والتدقيق والتفهم).

فلا بد من هذه الأشياء؛ فإذا نعلم أن العلم بحور زاخرة، وأن العلم ما يمكن للطلاب أن يحويه
جميعا ولو عمر ألف سنة؛ فعليه حينئذ أن يختار منه، وأن يجتهد في ذلك. فأولاً: لا بد من الحفظ على
النحو الذي ذكرنا.

وقبل هذا في التأصيل فرعان:

(١) من الرجز، وألفية السنن لمرتضى الزبيدي - صاحب تاج العروس - طبعته بتحقيق محمد بن عزوز، عن دار ابن حزم.

– فرع فيك أيها الطالب للتأصيل.

– وفرع فيما تَبْنِي عليه في التأصيل.

فرعان في التأصيل: فرعُ في الطالب، والثَّانِي في المطلوب.

ولنبداً بما ذكرنا أولاً وهو: ما ينبغي أن يكون في الطالب.

فأولاً: ينبغي أن يكون في طالب العلم عدة صفات:

الصِّفَةُ الْأُولَى: الحرص على الطلب.

هذا أول ما يجب على طالب العلم؛ يقول النبي ﷺ: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا

تعجزن»^(١)؛ فلا بد أن يتصف الطالب بالأول الذي ذكرنا. فتجد من علامات حرص الطالب أن يكون:

– حريصاً على الوقت -وقت التعلم-؛ فلا يلعب ولا يضيع الوقت.

– حريصاً على التذكير إلى المعلم؛ فلا يتأخر عن حصة المعلم.

– حريصاً على أن يحضر بكتابه؛ فلا يدع كتابه؛ ليصحح غلطاً، ويصحح مُصَحِّحاً أو محرفاً، ويقيد

فائدة، ويشرح غامضاً، ويزيد إيضاحاً في كتابه، فلا بد أن يكون معك هذا.

«أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن»؛ فإن العجز مصيبة، إن كان الإنسان عاجزاً عن

تحصيل العلم فلا يُتَعَبُ نفسه، وكما قال الخليل بن أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لتلميذه الأصمعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما رآه تعلم

علم العروض فما أفلح فيه قال له: قَطَّعَ هَذَا الْبَيْتَ:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعِهِ وَجَاوِزِهِ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ^(٢)

فهِمَّهَا، انْتَهَى؛ أنت لا تذهب وقتك إذا لم يكنْ عندك استعداد لعلَّ اللهُ ﷻ ما آتاك قدرة في باب التعلم

للعلم الشرعي، انْتَهَى؛ جاوزه إلى ما تستطيع، خذ الواجب من العلم الشرعي الذي لا يستقيم دينك إلا

به، [وانصرف إلى] ما ينفعك في الأمور الأخرى، فالشاهد أن الإنسان لا بد أن يكون عنده الحرص،

فالحرص كما ذكرنا:

– الحرص على الوقت؛ فلا يذهبُ عليه الوقت سُدىً، ولا يُضِيعُ شيئاً من وقته.

(١) رواه مسلم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، ح ٢٦٦).

(٢) من الوافر، من أشهر قصائد عمرو بن معدى كرب (ت ٢١) شاعرٌ مخضرمٌ من الصحابة رضي الله عنهم، انظر: «معرفة الصحابة» لأبي

نعيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (الترجمة ٢٠٧٢ ط دار الوطن)، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (١/٣٦٠ ط شاكر).

- الحرص على التبكير إلى العلم ومجالس العلم وعلى حصص المعلم؛ فلا يتأخر عنها ولا ينام ولا يتشاغل في أثنائها ولا يتناقل عن المجهي.

- الثالث: أن يحرص على أن يكون معه كتابه؛ لأن الكتاب الذي تقرأ فيه على المعلم هو الذي يبقى لك في فنك الذي حصلته، فتعود إليه بعد طول دهر فتجد الفوائد، وربما نسيت بعضها فتجدها مقيّدة؛ فتصحح الغلط من تصحيف وتحريف، ثم توضح المبهم والمشكل، ثم تضيف عليه. وقديماً قيل: (الكتاب إذا أظلم استنار)؛ فلا بد من أن يكون معك الكتاب.

وطالب العلم شرفه في حمل الكتب، وشرفه في حمل الدواة التي يكتب بها قديماً؛ وقد قيل للإمام أحمد: حتى متى وأنت مع المحبرة؟ قال: (مع المحبرة إلى المقبرة) ^(١) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ، فلا بد من الحرص.

الصفة الثانية: عليك أن تكون مجتهداً يا طالب العلم:

عليك بالاجتهاد؛ فإنه من جد وجد، ومن زرع حصد، ومن قرع الباب ولج ولج، ومن انحرف انصرف، من انحرف عن هذا انصرف؛ لا يمكن أن يكون مستقيماً في الطلب، لا بد وأن ينقلب بعد ذلك ويترك العلم، فعليك أن تكون مجتهداً.

والاجتهاد هو: الأخذ للنفس بالعزم وبالقوة، وقد أخذ أهل العلم هذا من قول الله -تبارك وتعالى-

: ﴿يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم].

فأنت تحرص على القوة في الاجتهاد، والقوة في التعلم، تجتهد؛ لا تكن ضعيفاً، في أمور الدنيا وفيما يعين لك من أمورها الحقيرة لا يرى أكثر منك اجتهاداً!، من البكور قبل طلوع الشمس وأنت في السوق؛ لكن لو جئت إلى طلب العلم ما تأتي إلا وقد طارت الطيور بأرزاقها، انفض المجلس، أو تجيء في آخر المجلس!

اعلم أنه كما قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللهُ: (لا يستطيع هذا العلم براحة الجسد) ^(٢)، إذا أعطيته كلك

(١) أخرجه ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في (مناقب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: ٣٧/١ ط التركي) عن صالح بن أحمد رحمهما الله، وبعده أثر آخر عنه قال: (أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر)!

(٢) أخرجه مسلم رَحِمَهُ اللهُ في (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلوات الخمس، ح ٦١٢)، ويحيى بن أبي كثير تابعي (ت ١٢٩) رَحِمَهُ اللهُ.

أعطاك بعضه، وإن لم تعطه إلا البعض فلا تلومن إلا نفسك فيما قد يُفوت؛ (هَذَا الْعِلْمُ لَا يُسْتَطَاعُ بِرَاحَةِ الْجَسَدِ).

أبو حاتم وأبو زرعة جَافَتْ عليهما السمكة وهما يتتبعان الدروس، فكلما أرادوا أن يأكلوها جاء الدرس تركوها وذهبوا، اشتروا سمكة -قَصْتُهُمْ مَعْرُوفَةً- فجاءوا بها للأكل فلما وصلوا البيت ما دخلوا البيت إلا وهم يُهيئون أوراقهم وكواغدهم ومحابرهم ونظروا فيما كتبوا، فحضر عليهم وقت الدرس الآخر؛ فتركوا السمكة وخرجوا إلى الدرس، ثم عادوا فبدءوا بالمقابلة، حضر الثاني فذهبوا إليه، ثم عادوا فجاءت المقابلة، ثم جاء النوم وهكذا حتى كادت السمكة أن تتلف بل دب فيها التلف فأكلوها بعد ذلك نية كما يُقال^(١)؛ وذلك من حرصهم على الوقت واجتهادهم في العلم. وأنت إذا ما بذلت شيئاً من ذلك حينئذ تعرف اللذة، أما إن لم تسلك في هذه المسالك؛ فإنك تُحرم هذه اللذة، وقديماً قيل: (من ذاق عرف ومن حُرِم انصَرَف)، فلا بد من الاجتهاد.

والاجتهادُ:

أولاً: أن تكون مواظباً على حصة درسك مع شيخك؛ فلا تُرى فيه متأخراً.
ثانياً: أن تكون مواظباً على مقدار حفظك مع شيخك؛ فلا تُرى في ذلك مفرطاً.
ثالثاً: أن تكون مداوماً على مراجعتك لحفظك؛ فلا تُرى في هذا متساهلاً.
هذه الثلاثة الأشياء أصول الاجتهاد في هذا الباب، عليك بها يا طالب العلم.
ثم ثالثُ الأمور التي يُحَصِّلُ بِهَا طَالِبُ الْعِلْمِ هُوَ: الْاِقْتِنَاعُ بِالْكَفَافِ مِنَ الدُّنْيَا فِي تَحْصِيلِهِ لِلْعِلْمِ:
الاقتناع بالكفاف، بالذي يقوم به جسمك وأودك، لا يشغل نفسه بالدنيا؛ لأن العلم والدنيا لا يجتمعان، تريد أن تشتغل بهذا وتشتغل بهذا وتصل في هذا إلى الغاية وفي هذا إلى الغاية والنهاية؟ ما يمكن أبداً!.

فعليك أن تكتفي بالبلغة، يعني: بما يقوتك، ويستر عورتك، وتقوم به شؤون حياتك، وما عدا ذلك تجعل كل الوقت الذي تصرفه مصروفاً في العلم، فهذا هو الأمر الثالث.

(١) ذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ (٣/٨٣٠ ت المعلمي) لعبد الرحمن ابن أبي حاتم في ترجمته، وأما أبوه أبو حاتم محمد بن إدريس فقد كاد يهلك في رحلته لطلب الحديث كما في ترجمته (٢/٥٦٨) رحمة الله عليهم.

ولهذا ترى أهل العلم وطلبة العلم في القديم... ونحن اليوم -والحمد لله- في راحة، وقد كُفِيَ -والله الحمد- أكثر طلبه العلم؛ حتى نكون دقيقين في العبارة ما نقول (كل طلبه العلم) لكن (أكثر طلبه العلم)، وأتحدث بالخصوص عن هذه البلاد، بلادنا بلاد المملكة العربية السعودية، قد كُفِيَ -والله الحمد- طلبه العلم في هذا الجانب، فلهم الإسكانات إن كانوا في غير البلد التي فيها مقر الدرس ولهم أيضا الجرايات -المكافآت- تُجرى عليهم.

وبعد ذلك لا ينبغي لطالب العلم مع هذا كله أن يشتغل بغير العلم، فهو إنما ترك أهله ووطنه وقرابته إنما تركهم لأجل تحصيل العلم؛ فلا يعودن بعد ذلك بخفي حنين، قد كُفِيَ الكد والكدح في طلب الرزق، وقد كُفِيَ أيضا المسكن في هذا الجانب، فما عليه حينئذ إلا أن يصرف أوقاته في تحصيل هذا الذي رحل إليه.

في السابق كانوا في غاية من المسغبة، وفي غاية من الجهد، وفي غاية من التعب، يرحل أحدهم على ملء بطنه وربما لا يجد، وبعضهم يبول الدم مرتين؛ لا يجد حذاءً يتعله في طريقه من الرمضاء، وبعضهم لا يوجد له إلا أطمار بالية من الثياب، ونحن في هذا كله في هذا العصر من هذا كله في عافية. فعلى طالب العلم أن يحرص على التحصيل، وعليه أن يصرف الوقت كله -إلا وقت راحته- يصرفه في تحصيل هذا العلم.

والأمر الرابع الذي يجب أن يكون متوافرا في الطالب: صحبته لأستاذ:

فإياك يا طالب العلم أن تكتفي بالكتب، احذر ذلك.

يَظُنُّ العُمُرُ أَنَّ الكُتُبَ تُجَدِّي	أخا ذهن لإذراك العُلوم
وما يدري الجهول بأن فيها	غوامض حيّرت عقل الحليم
إذا رُمّت العُلوم بغير شيخ	ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى	تصير أضل من توما الحكيم
وكم من عائب قولا صحيحا	وأفتنه من الفهم السقيم ^(١)

(١) من الوافر، الأبيات الأربعة الأولى لأبي حيان الأندلسي النحوي صاحب التفسير كما في ديوانه (٨٢ مخطوط قريء عليه، من مخطوطات جامعة الرياض)، وقصة توما الحكيم معروفة، وأما البيت الأخير فهو للمتنبي كما في ديوانه (٣١٧ ط دار الفكر العربي) من قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

إذا غمرت في شرف مَرومٍ فلا تقنع بما دون النجوم

إياك وأن تكتفي بالكتب، فهذا لا يكفي، فإنه يمر على الإنسان أشياء يحتاج إلى زمن حتى يصل فيها إلى النتيجة بسبب البحث والمطالعة والتفتيش والتنقيب والتنقيب، وهذا يختصره عليك المعلم، يختصره عليك الأستاذ، يختصره عليك الشيخ، يختصره عليك العالم؛ لأنه في الستين في السبعين في الخمسين من عمره قد حصل هذا الذي أنت تبدأ فيه من الصفر تبحث عنه ربما يومين، ثلاثة، أسبوع، شهر وربما لا تهتدي إليه، هو قد منَّ الله عليه بمعرفته إما من خلال القراءة على أسيّاخه أو بإتحاف أسيّاخه له أو بجُهدِه هو؛ فيوفر عليك أنت الوقت؛ فلا يضيع عليك وقتك.

فلا بد من مصاحبة الأستاذ، وعليك أن تصبر على صحبة الأستاذ، أما أن تدخل اليوم درسا وتريد أن تخرج غدا عالما! هذا لا يمكن، ولهذا يقول النبي ﷺ فيما تعلمونه في قصة موسى -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مع الخضر -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، ماذا قال لما سأل المرة الأولى؟ قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت، الثانية قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا؟ قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، الثالثة قال: هذا فراق بيني وبينك، فقال النبي ﷺ: «رحم الله أخي موسى لو صبر حتى نرى لكن كتب الله -جل وعلا- ذلك»^(١).

الشاهد: أنه لا بد من الصبر في صحبة المعلم، ويكون ذلك بطول المصاحبة، تريد أن تأخذ العلم كله على يد معلم في دورة مثلا؟ ما يمكن، في أسبوع؟ ما يمكن، في شهر؟ ما يمكن، أنت تأخذ رؤوس أقلام، ولهذا اسمعوا قول الزهري رَضِيَ اللهُ فِي وَصِيَّتِهِ لِيُونُسَ ابْنِ يَزِيدِ الْأَيْلِيِّ، يقول يونس ابن يزيد الأيلي: قال لي ابن شهاب: (يا يونس، لا تكابر العلم، فإن العلم أودية فأيتها أخذت قطع بك فيها قبل أن تبلغه، ولكن خذ مع الليالي والأيام) فلا بد أن تصبر مع المعلم زمانا حتى تستفيد منه، فيقول: (ولكن خذ مع الليالي والأيام، ولا تأخذ العلم جملة؛ فمن رام أخذه جملة ذهب جملة، ولكن الشيء مع الشيء مع الليالي والأيام)^(٢).

انظروا إلى هذه الوصية، وصية جميلة، وجامعة من ناصح مفيد؛ ألا وهو الزهري رحمه الله تعالى عليه، يقولها لمن؟ ليونس ابن يزيد الأيلي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى أَيْضًا، وذاك عَلمَ وذاك عَلمَ، وهذا إمام وهذا

(١) أخرجه البخاري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ (كتاب التفسير، باب " وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا " ح ٤٧٢٥)، ومسلم

رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ (كتاب الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، ح ٢٣٨٠).

(٢) أخرجه ابنُ عبد البرِّ في جامعِ بيانِ العِلمِ وَفَضْلِهِ (١/ ٣٥٩ رقم ٦٥٢).

إمام، يقول له هذه النصائح.

فعليك يا طالب العلم مع صحبتك للأستاذ أن تصبر في الزمن معه، وهذا كله هو الذي يثمر لك، أما تريد أن تنقلب بين عشية وضحاها حاملاً العلم الذي عند هذا العالم أو عند هذا المعلم حصّله في ثلاثين سنة، في أربعين سنة، في خمسين سنة، ولا يزال يحصّل، وتريد أنت أن تأخذه في مجلس؟ أو مجلسين؟ أو في أسبوع؟ أو في أسبوعين؟ ما يمكن.

قال مالك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لما أخذوا عليه الموطأ وقرأوه عليه في شهر: (كتابٌ أمضيت فيه أربعين سنةً تأخذونه في أربعين يوماً؟! ما أقل ما تفقهون فيه) ^(١)، يقول هذا لمن؟ للشافعي وأمثاله وأضرابه؛ فما يقال لنا نحن اليوم؟ فلا بد من الحرص على صحبة الأستاذ، ومن الصبر على ذلك والملازمة، ولا تعجل؛ فإن العجلة داء في هذا الباب ^(٢).

اليوم شيء وغداً مثله من نخب العلم التي تلتقط
يُحصّل المرءُ بها حكمةً وإنما السيلُ اجتماعُ النقط ^(٣)

ويروى:

بضمّك الشيء إلى مثله وإنما السيلُ اجتماعُ النقط

فلا بد من أن تأخذ اليوم شيئاً، وغداً شيئاً، وبعد غد شيئاً، وهكذا.. فهذه الأمور لا بد منها لطالب

العلم في سيره في تعلمه، وهذا قد جمعه الناظم بقوله -وهو معروفٌ عندكم-:

أخي لن تنال العلم إلا بسنةٍ سأنبئك عن تفصيلها ببيان
ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبلغَةٌ وصحبةٌ أستاذٍ وطولٌ زمانٍ ^(٤)

والذكاء هبة من الله -تبارك وتعالى- ونحن لم نتكلم فيه.

ثم بعد ذلك ننقلب إلى الفرع الثاني وهو:

(١) أخرجه ابن عبد البر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في التمهيد (١/٦٠ ط الفاروق الحديثة) عن عمر بن عبد الواحد، وأخرج أبو نعيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الحلية (٦/٣٣١) عن أبي خليل قال: (أقمت على مالك فقرأت الموطأ في أربعة أيام فقال مالك: علم جمعه شيخ في ستين سنة أخذتموه في أربعة أيام؛ لا فقهتم أبداً).

(٢) أخرجه أبو نعيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الحلية (٦/٣٢٠) عن مالك رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: (كان الرجل يختلِف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه).

(٣) من السريع، نسبهما السيوطي في (بغية الوعاة) إلى بهاء الدين ابن النحاس الحلبي النحوي (١/١٣-١٤ برقم ١٦، ط: دار الفكر).

(٤) من الطويل، ينسبان إلى علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكذا الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ما يتعلق بالتأصيل في المطلوب:

فأول شيء يُبدأ به: الحفظ للمتون؛ فإنه (من حفظ المتون حاز الفنون) هذا أول شيء، (فاحفظ فكل حافظ إمام)؛ فلا بد من الحفظ؛ ولهذا يقول النَّبِيُّ ﷺ: « نَصَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها فَأَدَاها كَمَا سَمِعَهَا » وَيُرْوَى: « فَحَفِظَهَا فَأَدَاها كَمَا سَمِعَهَا، فَرَبٌ حَامِلٌ فَهَهُ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبٌّ حَامِلٌ فَهَهُ إِلَى مِنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »^(١)، فالعلم هو الحفظ، كما قلنا فيما سبق معنا:

عِلْمِي مَعِي أَيْنَمَا يَمَّمْتُ قَلْبِي وَعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ
إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ^(٢)

فلا بد من حفظ، وهذا الحفظ هو الذي يكون مع صاحبه أينما كان.

وعليك أن تسلك في المحفوظ ما يأتي:

- أولاً: تحفظ، ثم بعد ذلك: تدقق هذا المحفوظ بالمراجعة، ثم بعد ذلك: تتفهم.

فالأول هو الذي ذكرناه في بدء الحديث، فهو (التلقين) هذا لمن؟ للصغار الذين لا يفهمون، وأما من عداهم - من كان قد شب عن هذا الطوق والله الحمد - فيبدأ أولاً بالحفظ، ثانياً التدقيق للمحفوظ، ثالثاً التفهم.

لأن التدقيق للمحفوظ يورث بقاءه، وأنت إنما حفظت لتستدل، فإذا لم تحفظ وتدقق ما حفظت فإنك لم تحفظ!، إنما حفظت لتستدل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، بكلام أهل العلم، بأقوال السلف - رحمهم الله تعالى -؛ وهذا موجود في هذه المتون التي حفظتها الإشارات إليها، فأنت تحتاج إلى ذلك، فلا بد من حفظ، والحفظ لا بد فيه من حفظ أولاً؛ ثم التدقيق ثانياً؛ ثم يأتي بعد ذلك التفهم:

اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالْتَّعَلُّمِ وَالْحِفْظِ وَالتَّدْقِيقِ وَالتَّفْهَمِ^(٣)

(١) رُوِيَ بِالْفَافِظِ مُتَعَدِّدَةً عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، مِنْهَا مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ح ٢١٥٩) وَأَبُو دَاوُدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ فَضْلِ نَشْرِ الْعِلْمِ، ح ٣٦٦) مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالتِّرْمِذِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْحَثِّ عَلَى تَبْلِيغِ السَّمَاعِ ح ٢٦٥٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَبَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَةِ (ح ٤٠٤).

(٢) سَبَقَ ص (٢٤)، وَكَمَا قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِلْبِيرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَائِيْتِهِ الذَّائِعَةِ: [الوافر]

وَكَنَزَ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِيَصَّا خَفِيفَ الْحَمَلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

وَتَلْبَسُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجَا وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا عَرَبْتَا

(٣) سَبَقَ.

فلا بد من هذه الثلاثة الأشياء.

- ثُمَّ هَذَا الْمَحْفُوظُ فِيهِ صِفَةٌ:

لا بد أن يكون هذا المحفوظ راجحاً في الفن، ذاك صفة حفظه وهذا الآن صفة ما تحفظ، لا بد أن يكون المحفوظ عندك يا طالب العلم أن يكون راجحاً، بمعنى: أن تأتي إلى المتن المعترف في الفن عند علماء الفن، تأتي إلى المتن المحرر، المتن المشهور عند علماء الفن.

فمثلاً: هل تأتي الآن في هذا الوقت إلى ألفية ابن مالك أو تذهب إلى ألفية ابن معطي؟ العمل على ماذا؟ والدرس لماذا؟ لألفية ابن مالك، فألفية ابن مالك عليها الشروع والتعليقات، والحواشي، والاعتراضات، والرد على هذه الاعتراضات، والإعراب لأبياتها ولشواهدا وشروحها ونحو ذلك، فأنت تأتي في الحفظ للمتن المشهور فتعمد إلى المتن المشهور الراجح الذي يمشي عليه أصحاب الفن، ثم بعد ذلك تحفظه وتدققه.

- ثم بعد ذلك تأتي الرتبة الثالثة، وهي: اختيارك لمن تأخذ عليه هذا العلم.

وهذا ضروري جداً، ولا بد فيمن تدرس عليه وتُحصل عليه وتُؤصل نفسك عليه من توافر شرطين، كما أن المحفوظ لا بد من توافر شرط فيه وهو: أن يكون جامعاً للراجح في الفن مشهوراً بين علمائه فهكذا أنت أيضاً فيمن تدرس عليه وتُؤصل نفسك في العلم عليه لا بد أن تأخذ هاتين الصفتين:

- أن يكون مفيداً.

- وأن يكون ناصحاً.

* والمفيد هو: الذي عنده، الذي تستفيد منه.

وهنا سؤال يقول فيه القائل: كيف أعرف أن هذا المعلم مفيد أو غير مفيد؟ فنقول إجابة على هذا السؤال: هذا يُعرف بأمرين:

- الأمر الأول: الشهرة: اشتهر بين الناس أن فلاناً عالم، وفلاناً شيخ مشهور بالعلم، فلان مدرس ناجح موفق، طلبته مستفيدون منه.

- أو يوصونك به، يعني: يقال لك ممن تثق بعلمه ودينه وأمانته يقول لك: ادرس على فلان؛ فإنه أهل لأن تدرس عليه، يوصونك بكذا وبكذا وبكذا، وبمن؟ بفلان وفلان وفلان؛ خذ على فلان وخذ على فلان وخذ على فلان.

فإما أن يكون مشتهرا بين الناس، معروفا باشتهاره بأنه عالم ومفيد، وإما أن ينص لك على أنه مفيد أهل العلم: خذ على فلان واستفد من فلان، لازم فلانا^(١)، جالس الحسن أو ابن سيرين! ستستفيد من هذا ومن هذا، أيًّا جالست استفدت.

فلا بد من أن يكون مفيدا لك، والطريق الذي تعرف به هو هذا الذي ذكرنا: إما أن يكون ذو الشهرة، اشتهر بين الناس على أن هذا هو العالم؛ فعليك أن تجلس عليه، أو نص عليه لك بأن هذا هو المفيد؛ فعليك أن تجلس عليه.

والعلم إنما يؤخذ من أهله، واحذر أن تُخدع يا طالب العلم؛ فإن العلم - كما قال مالك رَضِيَ اللهُ تَعَالَى - لا يؤخذ عن أربع، احرص على أن تفهم هذا وتطبقه في حياتك، يقول مالك رَضِيَ اللهُ تَعَالَى: (أربعة لا يؤخذ عنهم العلم:)

-الأول: (سفيه مُعلِن بالسفه) ولو كان عنده علم، هذا البذيء لا تجلس عنده؛ لأن أخلاقه تؤثر في الناس، وتؤثر في الطلبة فيخرج طلبته في الغالب صورة منه^(٢).

(١) قَالَ بَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: (سَمِعْتُ أُتُوبَ يَأْمُرُنَا بِهَشَامِ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ -الدَّسْتَوَائِيِّ- وَيَحْتُ عَلَى الْأَخْذِ عَنْهُ) السَّيِّر (٧/١٥٠).
وعن ابن عَوْنٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: (لَا تَأْخُذُوا الْعِلْمَ إِلَّا مِمَّنْ شُهِدَ لَهُ بِالطَّلَبِ).

وَقَالَ شُعْبَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: (اَكْتُبُوا الْمَشْهُورَ عَنِ الْمَشْهُورِ)، انظر الجامع للخطيب (١/١٩٠)؛ فِيهِ صِفَةٌ لِمَنْ يُؤْخَذُ عَنْهُ وَلَمَّا يُؤْخَذُ، وَمَنْ طَلَبَ الْغَرَائِبَ مِنَ الْأَعْمَارِ ضَلَّ وَمَا حَصَلَ وَأَصَاعَ عَمْرَهُ فِي غَيْرِ طَائِلٍ؛ وَإِنَّمَا هُوَ يَقْضِي شَهْوَةَ نَفْسِهِ.

(٢) أَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي سننه (المقدمة، باب في الحديث عن الثقات، ح ٤٢٥) عَنْ مُغِيرَةَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ -هُوَ النَّخَعِيُّ- رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: (كَانُوا إِذَا أَتَوْا الرَّجُلَ يَأْخُذُونَ عَنْهُ الْعِلْمَ نَظَرُوا إِلَى صَلَاتِهِ وَإِلَى سُنَّتِهِ وَإِلَى هَيْبَتِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ)، فَلَا عَجَبَ كَانَ مُغِيرَةُ -هُوَ ابْنُ مِقْسَمٍ- رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ يَقُولُ: (كُنَّا نَهَابُ إِبْرَاهِيمَ هَيْبَةَ الْأَمِيرِ) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي الطَّبَقَاتِ (٨/٣٨٩ ط الخانجي).

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي مناقبِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ (٢/١٤٤ ط دار التراث) بِسِنْدِهِ إِلَى حَرْمَلَةَ بْنِ يَحْيَى رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ يَقُولُ - وَذَكَرَ لَهُ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ وَمَا فِيهِمْ مِنَ الْمَجَانَةِ وَالضَّحْكِ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ الْأَدَبَ -: (يَا سُبْحَانَ اللَّهِ، لَوْ اسْتَعْمَلَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ مَا تَقُولُونَ لَكَانُوا عُلَمَاءَ كُلِّهِمْ) ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْنَا الشَّافِعِيُّ فَقَالَ: (مَا أَعْلَمُ أَنِّي أَخَذْتُ شَيْئًا مِنَ الْحَدِيثِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ التَّحْوِ أَوْ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ مِمَّا كُنْتُ أَسْتَفِيدُهُ إِلَّا كُنْتُ أَسْتَعْمَلُ فِيهِ اجْتِنَابَ مَا ذَكَرْتُمْ، وَكُنْتُ أَفْعَلُ هَذَا قَدِيمًا، وَكَانَ ذَلِكَ طَبْعِي، إِلَى أَنْ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَرَأَيْتُ مِنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ مَا رَأَيْتُ مِنْ هَيْبَةٍ وَإِجْلَالَةٍ لِلْعِلْمِ؛ فَازْدَدْتُ لِدَلِكِ حَتَّى رُبَّمَا كُنْتُ أَكُونُ فِي مَجْلِسِهِ فَأُرِيدُ أَنْ أَصْفَحَ الْوَرَقَةَ فَأَصْفَحَهَا صَفْحًا رَقِيقًا؛ هَيْبَةً لَهُ؛ لِئَلَّا يَسْمَعَ وَقَعَهَا!)، ثُمَّ أَخْرَجَ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ سُلَيْمَانَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: (وَاللَّهِ مَا اجْتَرَأْتُ أَنْ أَشْرَبَ الْمَاءَ وَالشَّافِعِيَّ يَنْظُرُ إِلَيَّ هَيْبَةً لَهُ)؛ فَانظُرْ رَحِمَكَ اللَّهُ كَيْفَ كَانَ الْقَوْمُ يَتَوَارَتُونَ هَذَا الْأَمْرَ كَمَا يَتَوَارَتُونَ الْعِلْمَ.

والعلم له هيبة وله وقار، فيجب أن تتعلم العلم وتتعلم له الهيبة والوقار^(١)؛ والسفيه لا يصلح للأخذ عليه، هذا الأول.

-الثاني من الذين لا يؤخذ عنهم العلم: يقول مالك: (صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه) أصحاب البدع لا يؤخذ عنهم؛ لأن هذا العلم كما قال ابن سيرين ورواه مسلم في مقدمة صحيحه وغيره: (إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم)^(٢)، فلا يؤخذ العلم الشرعي عن أهل الأهواء والبدع، لم؟ لأنهم لا يؤمنون؛ فقد يدسون على الطالب البدعة وهو لا يعلم ولا يتنبه لها لقصور علمه وفهمه، فيدسون البدعة فتعلق بقلبه من حيث لا يعلم، فيقع في البدعة وهو لا يدري فيهلك؛ فإياك والجلوس على أهل الأهواء، لأن هذا العلم دين وأنت تطلبه لتتدين به، وصاحب البدعة ليس مأمونا على دين الله تبارك وتعالى.

- الثالث: (رجل معروف بالكذب في أحاديث الناس، ولو كان لا يكذب على رسول الله ﷺ)، فإياك وأن تأخذ عن إنسان يعرف عليه الكذب؛ لأنه وإن لم يكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ إلا أنه لا بد وفي يوم من الأيام أن يقع في الكذب، يقول لك: (هذا في المكان الفلاني) وهو كذاب! و (هذا ذكره فلان في الكتاب الفلاني) وهو كذاب؛ ترجع ما تجده!، وهكذا.

فالعالم يخاف الله ﷻ ويتقيه، ﴿إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ [النحل: ١٠٥]، نسأل الله العافية والسلامة، فهذا الرجل ليس بأهل لأن يؤخذ عنه العلم.

- الرابع من هؤلاء الأربعة الذين لا يؤخذ عنهم العلم: يقول مالك: (و رجل له فضل وصلاح لكنه لا يعرف ما يحدث به)^(٣)، يعني: عنده عبادة وتزهد لكن لا يفرق بين الغث والسمين، الموضوعات على

(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (تعلموا العلم، وتعلموا له الوقار والسكينة) أخرجه وكيع رضي الله عنه في الزهد (ح ٢٧٥) وروى مرفوعاً ولا يصح.

(٢) مسلم رضي الله عنه (المقدمة، باب بيان أن الإسناد من الدين (١/ ١١٩ ط دار الحديث مع شرح النووي) والدارمي رضي الله عنه (المقدمة، باب في الحديث عن الثقات، ح ٤٢٨) وغيرهما عن محمد بن سيرين رضي الله عنه، وأخرجه ابن عبد البر رضي الله عنه في التمهيد (١/ ٥٤) عن مالك رضي الله عنه، مع زيادة تأتي ص (٥٢)، وروى مرفوعاً لكنه لا يصح كما ترى تفصيله في الضعيفة (ح ٢٤٨١)، وأخرجه الخطيب في الجامع (١/ ١٩٤-١٩٥، فقرة ١٣٩-١٤٠ ط الرسالة) عن أنس بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما، ولا يصحان كذلك، والله أعلم.

(٣) أخرج أثير مالك رضي الله عنه ابن عبد البر رضي الله عنه في التمهيد (١/ ٥٣-٥٤)،

والخطيب في الجامع (١/ ٢٦٢، فقرة ١٧١).

رسول الله ﷺ، الواهيات التي تروى وتنسب إلى رسول الله ﷺ، والحديث في (البخاري) أو في (التاريخ للخطيب) أو في (التاريخ لابن عساكر) عنده كله سواءً!، هذا لا يميز بين الصحيح من الضعيف، لا يعرف الثابت من غير الثابت، وصنعتة ماذا؟ صنعتة العبادة.

ولهذا يقول ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في (كتاب الصيام) لما جاء إلى (الحجامة) جاء إلى عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم قال: (عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ليس من أحلاس الحديث الذي يحفظ الأسانيد؛ إنما صناعتُهُ العبادة والتَّقَشُّفُ والموعظةُ والزهد) ^(١) يعني: عابد في نفسه صالح في نفسه؛ لكنه لا يصلح أن يكون معلمًا.

المعلم هو الذي يأتي بالأدلة ويحقق في الأدلة: في كلام الله، وفي كلام رسول الله ﷺ، هذا ناسخ، وهذا منسوخ، وهذه الآية مقيدة، وهذا الحديث لا يثبت عن رسول الله ﷺ؛ ضعيف، هذا الحديث ضعيف جدًا، هذا الحديث موضوع على رسول الله ﷺ، هذا الحديث مخصوص بكذا، هذا الحديث متأخر، هذا الحديث متقدم، هذا الحديث مقلوب، هذا الحديث مُدَّلس، هذا الحديث مرسل، هذا الحديث صُحِّفَ، هذا الحديث غلط، هذا حديث مختلف، ونحو ذلك؛ فهذا الذي لا يعرف هذه الأشياء هذا شَغَلَتْهُ العبادة.

الآن لو قلت هذا للناس قالوا يطعن في الصالحين! لا؛ إنما قال لك: هذا ليس أهلاً لأن تأخذ عنه، لم؟ لأنه هو صالح في نفسه، وأنت تريد أن تأخذ عنه، تصلح أنت؟ هو ما عنده طريق لإصلاحك، ما عنده علم، هو عنده العبادة؛ فهذا صالح في نفسه، لكنه لا يتعدى فيصلح غيره، فهذا أنت لا تلزمه.

فإذن (رجل له فضل وصلاح) في نفسه (لكنه لا يعرف ما يحدث به) ما يعرف العلم، فهذا أنت لا تجلس إليه، ولهذا يقول مالك: (لقد أدركت سبعين في هذا المسجد كلهم لو فوض إليه بيت المال لكان أمينا عليه، ولكن لم نأخذ عنهم؛ لأنهم ليسوا أهلاً لهذا الشأن، حتى قدم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري فابتدروا إليه) ^(٢)؛ لم؟ لأنه عالم، وعارف بما يقول، يفهم ما يقول ويعرف ما يقول، وإذا تكلم

(١) في صحيحه (٢/ ٨٤٨ ط العثمانية، تحت ح ١٩٧٢) والمراد بأحلاس الحديث: الذين يلازمونه ولا يفارقون طلبه ومذاكرته، وهذا على طريق المثل.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١/ ٥٤) وسبق أوله ص (٤٨)، ثم أخرج عنه أيضًا أنه قال رَحِمَهُ اللهُ: (رُبَّمَا جَلَسَ إِلَيْنَا الشَّيْخُ فَيَتَحَدَّثُ كُلَّ نَهَارِهِ مَا نَأْخُذُ عَنْهُ حَدِيثًا وَاحِدًا!؛ وَمَا بِنَا أَنَا نَتَّهَمُهُ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ).

تكلم عن علم؛ فهذا يقول مالك: (فابتدرناه)، أما أولئك ففيهم الأمانة وفيهم العبادة وفيهم الصدق وفيهم الورع لو أئمنوا على بيت المال لكانوا أمناء لكنهم في هذا الباب لا، لا يعدلون شيئاً، لا يساؤون شيئاً، يقول: لم نأخذ عنهم مع أمانتهم وورعهم وعبادتهم، فهم ليسوا بأهل لأن يؤخذ عنهم العلم.

فلذلك ينبغي لطالب العلم أن يتعد عن صاحب الهوى، وأن يتعد عن صاحب الكذب، وأن يتعد أيضاً عن العابد الزاهد الذي شغله العبادة والزهد والورع ولا يدري ما العلم؛ لأن هذا ليس بمفيد، ونحن قد اشترطنا ماذا؟ أنك تأخذ هذا العلم تستفيده ممن؟ من مفيد، ولذلك يقول الناظم: (تأخذه على مفيد)، هذا الوصف الأول فيمن تأخذ عليه.

* الأمر الثاني: أن يكون ناصحاً:

وأصحاب الكذب وأصحاب الأهواء والبدع وأصحاب العبادة الذين لا يعرفون البدع والديانات وما يحدث من المحدثات؛ هؤلاء لا يمكن أن يكونوا ناصحين لك، لم؟ لأن فاقده الشيء لا يعطيه؛ فالناصح ينصحك من البدع ويحذرك منها، لأن البدع تُردي صاحبها وتهلكه، وأيضا ينصحك بما يصلح لك ويصلحك في حالك ومستقبلك، من الكتب، وأنواع العلوم، وأنواع المعلمين. ثم إنه قد ينصح لك ابتداءً وقد ينصح لك إذا استنصحت، فمثل هذا هو الذي تأخذ عنه. أما الذي لا ينصحك إذا رآك مفرطاً مقصراً، ولا ينصح لك إذا رآك متنكباً الطريق السوي في التعلم؛ فإن هذا لا يصلح أن تتعلم عليه، لأنه ليس بناصح.

والمعلم كالوالد، وقد جاء عن النبي ﷺ في سنن أبي داود - وقلت ذلك غير مرة: في سنده شيء من لين - قول النبي ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم؛ فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه» وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمّة^(١)، وهذا الجزء الأخير

(١) أخرجه أبو داود رحمه الله (كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، ح ٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وحسنه الشيخ الألباني، ولعل الشيخ يقصد باللين في سنده ما قيل في محمد بن عجلان من جهة حفظه لا سيما في أحاديث أبي هريرة رضي الله عنه - انظر «التقريب» - ولغير موضع الشاهد منه شواهد في الصحيحين يأتي ذكرها، وعند مسلم (ح ٢٦٥) من طريق سهل ولم يذكر غير استقبال القبلة واستدبرها، ولكن المحفوظ فيه عن ابن عجلان، انظر: «الإلزامات والتتبع» للدارقطني (ص ١٨٨-١٩٠ ت الشيخ مقبل).

قد صح في الأحاديث الصحيحة^(١)، الشاهد أن المعلم يشترط فيه أن يكون ناصحاً لمن يعلمه.

نختم ذلك بالترقي والتدرج في العلم:

أقول بعد هذا كله: لا بد من التَّرَقِّي والتَّدْرُج في العلم، وذلك بأخذ الصغار من العلم قبل الكبار، وإياك أن تتعدى في أول طلبك إلى ما هو من الكبار، وهذا نعني به المطولات والمبسوطات من الكتب العلمية، فطالب العلم لا ينتقل ولا يقفز على المطولات وهو لم يحصّل الأصول، فقيماً قيل: (طعام الكبار سم الصغار)، هل يمكن أن تأتي إلى الرضيع وتعطيه قطعة لحم؟ ما يمكن؛ يموت! هل يمكن أن تأتي إلى الرضيع وتعطيه عصيدة بالسمن والبرّ والعسل؟ يموت! لا تحتمله معدته! فإذاً لا بد من الترقّي.

فالترقي أولاً بحفظ مختصر في الفن؛ ثم تنتقل بعد ذلك إلى ما هو أوسع منه وهو متوسط في الفن؛ ثم تنتقل بعد ذلك إلى ما هو أوسع منه وهو مُحَرَّر متقن موسع في الفن، فحينئذ تُحَصِّل بهذا على الطريق الصحيح.

* فمثلاً في العقيدة قلنا:

تبدأ أولاً بـ «القواعد الأربع»، ثم بـ «الأصول الثلاثة»، ثم بـ «كتاب التوحيد»، ثم بـ «كشف الشبهات»، ثم بـ «الواسطية»، ثم بـ «تلخيص الحموية»، ثم «الحموية» الأصل^(٢)، ثم تقرأ «التدمرية» و«الطحاوية»؛ لا يضريك بعد ذلك.

* جئت أيضاً إلى الحديث:

تبدأ بـ «الأربعين»، ثم تنتقل إلى «عمدة الأحكام»، ثم تنتقل إلى «بلوغ المرام»، ثم تنتقل بعد ذلك إلى «المنتقى» «منتقى الأخبار»، ولا يضريك بعد ذلك أن تقرأ ما يسر الله ﷺ لك من الكتب المطولة المسندة أو المجردة.

(١) النهي عن استقبال القبلة واستدبارها في حديث أبي أيوب رضي الله عنه عند البخاري (ح ١٤٤) ومسلم (ح ٢٦٤)، والنهي عن الاستطابة باليمين في حديث أبي قتادة رضي الله عنه عند البخاري (ح ١٥٣) ومسلم (ح ٢٦٧)، والأمر بثلاثة أحجار والنهي عن الروث والرمة (العظم) في حديث سلمان رضي الله عنه عند مسلم (ح ٢٦٢) وغيره.

(٢) وهي «الحموية الكبرى» طُبعت مؤخرًا طبعه مُتَقَنَةٌ بتحقيق الدكتور حمد ابن عبد المحسن التويجري، عن مكتبة دار المنهاج بالرياض.

* إذا جئت إلى الفقه:

والفقه عائد إلى كل إنسان بحسبه وبحسب البلد التي يكون فيها؛ فمثلاً عندنا هنا يُبتدأ بـ «الزاد» أو بـ «دليل الطالب» أو بـ «عمدة الفقه»، ثم ينتقل بعد ذلك إلى «المقنع»، ثم ينتقل بعد ذلك إلى «الكافي»؛ ثم لا يضيره بعد ذلك أن يقرأ في أي كتاب.

* إذا جئت إلى أصول التفسير:

فمثلاً: «المقدمة» في أصول التفسير، ثم ملخص «الإتقان»، ثم تقرأ «الإتقان» بعد ذلك للسيوطي.

* إذا جئت إلى أصول الفقه:

فتبدأ مثلاً بـ «الورقات» لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني رَحِمَهُ اللهُ، ثم بعد ذلك -إن شئت أن تأخذ مختصراً- كتاب «الأصول من علم الأصول» وهو للشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ تعالى، ثم بعد ذلك تنتقل إلى «شرح الكوكب المنير»، ثم بعد ذلك تنتقل إلى «الروضة»، ثم بعد ذلك لا يضيرك أن تقرأ في أي كتاب من الكتب الموسعة في الأصول، وأنصح أنا بـ «الكوكب» وشرحه؛ لأنه جارٍ في مجمله على اعتقاد أهل السنة، وهذا قلماً يسلم منه كتب أصول الفقه.

* هكذا إذا جئت إلى النحو:

تبدأ بـ «الآجرومية»، ثم تأتي بعد ذلك إلى «ملحة الإعراب»، ثم تنتقل بعد ذلك إلى «ألفية ابن مالك»، ثم لا يضيرك أن تقرأ ما تشاء من كتب الفن بعدها.

* ثم جئت إلى علوم الحديث (المصطلح):

فإنك تبدأ -مثلاً- بـ «البيقونية» أو تبدأ بـ «النخبة»، وأنا أفضل أن تبدأ بـ «النخبة» لأنها أتقن، فتأتي إلى «نخبة الفكر» مع شرحها «نزهة النظر»، ثم تنتقل بعد ذلك إلى «التقريب» للنووي وهو ملخص من «علوم الحديث» لابن الصلاح مع شرحه «تدريب الراوي»، أو تنتقل إن شئت إلى «الباعث الحثيث»؛ كلاهما بمنزلة واحدة، ثم بعد ذلك تنتقل إلى «المقدمة» «مقدمة ابن الصلاح»، ثم إلى النكت عليها «التقييد والإيضاح» للحافظ العراقي، ثم لا يضيرك بعد ذلك أن تقرأ أي كتاب في هذا.

* هكذا في التجويد:

يبدأ الطالب بـ «تحفة الأطفال»، ثم يترقى إلى متن «الجزرية»، ثم لا يضيره بعد ذلك أن يأخذ ما يسر الله سبحانه وتعالى له من العلوم أو من الكتب التي مُتنت في هذه الفنون.

الشاهد أنه لا بد أن يبدأ على هذا النحو، ولا ينتقل من متنٍ إلى آخرٍ إلا بِشَرَطٍ: بعد أن يتقن الأول حفظاً، وإن لم يتيسر له الحفظ فلا أقل من أن يتقنه فهماً، والإتقان في الفهم ذكر أهل العلم فيه الآتي:

أن يكون مستحضراً له جميعاً أو أغلبه، بحيث إذا أراد أن ما يستحضره منه أكثر مما يغيب عنه، فإذا كان الأمر كذلك و وصل إلى هذه الرتبة فإنه قد أتقن المتن هذا إن لم يكن حفظاً فاستحضاراً، فيصح له بعد ذلك أن ينتقل إلى غيره.

أقول تنمة لما سبق:

الحفظ - معشر الإخوة والأبناء - الآن يحارب، ونحن أمة الإسلام حفظنا الله ﷺ بحفظنا لكتابه - تبارك وتعالى - قولاً وعملاً، حفظ في الصدور وفي السطور، وأيضاً حفظنا له بالعمل، حفظه الله ﷺ على هذه الأمة بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر]، ومن حفظ الله له - تبارك وتعالى - تيسيره لحفظه - لحفظ هذا الكتاب - حتى أن الإمام ليخطئ فيرد عليه الصغير؛ لم؟ لأن الله ﷺ قد وفقه لحفظ هذا الكتاب.

ونحن لا نعارض تنمية أذهان الصغار وعقول الصغار بما يفتقها ويشحذ فيها ويقوي فيها الفهم من خلال التعليم عن طريق الأشياء الفكرية والمهارات ونحو ذلك، فنحن لا نعارض على ذلك، هذا خير على خير، لكن هم يهجمون هجمة شرسة على الحفظ عندنا نحن؛ لأنهم يعلمون أن هذا هو سر بقاء هذا الدين، حفظ أهله له في صدورهم ومن ثم في سطورهم؛ فحاربوا هذا الحفظ محاربة شعواء، فالإذاعات والصحف والمجلات وبعضهم ممن تجدهم في الكليات يحاربون هذا الباب حرباً شعواء.

محاربة الحفظ هذه أصبحت ظاهرة في هذا العصر، ويصفون أهلها بـ (التقليديين)، والمدرسة هذه يقولون عنها: (المدرسة التقليدية)! هكذا كما سمعتم، تقليدية، قديمة، رجعية، متأخرة!! ما عندهم إلا هذا؛ فנסوا أن الوضع عندنا يختلف عن الوضع عند الكفار، أولئك علومهم حياتية، دنيوية؛ ﴿ يَعلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم]، أما نحن معشر المسلمين فالعلم الذي عندنا هو الذي خصنا الله ﷺ به وشرفنا به، وفضلنا به، هذا العلم الشرعي، فبسواه لن نرتفع.

فيختلف هذا العلم عن العلم الدنيوي الخاضع للتجارب

والبحث والنظر والعمل؛ فهذا قائم كله على حفظ الصدور؛ فحينئذ لما اختلفت الحال عندنا عن الحال عندهم فلا يمكن أن يجبر ما عندهم على ما عندنا، ومن رام ذلك فقد غالط وكابر وغش الأمة ولم ينصح لها.

فأنا أقول: كما أن أهل الخير والاستقامة والفضل والصلاح لا يمانعون فلماذا أنتم تهجمون عليهم؟ لكن هي حرب شرسة كما قلت لكم على حملة هذا الدين، وعلى الذين يغرسون الشريعة في قلوب الناشئة، فاحذروا ذلك أيها الإخوة وفقني الله وإياكم.

الأسئلة^(١)

السؤال (١): جزاكم الله خيراً أهل العلم، مثل دراسة العلوم الدنيوية مهم وعليها أجر وثواب، وإذا تركنا العلم الشرعي فهل نحن محاسبون؟

جواب الشيخ: العلم الشرعي على قسمين: علم يجب تعلمه على كل مسلم، وهذا العلم الضروري الذي لا يصح دينك إلا به، فلا تعرف صلاتك ولا صيامك ولا طهارتك إلا بأن تتعلم؛ هذا واجب على كل مكلف، والعلم الآخر -القسم الآخر- هذا واجب وجوبا كفايياً؛ إذا قام به البعض سقط عن الباقين، فيجب على كل مسلم أن يعلم ما لا يصح دينه إلا به من نحو طهارته وصلاته وصيامه ونحو ذلك، وما زاد عن ذلك فهو في حقه فرض كفاية.

السؤال (٢): وهذا يسأل أيضاً عن أثر ورد علينا يقول: (طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله)^(٢)؛ فهل الإنسان إذا تبين له من حاله أنه يطلب العلم لغير الله، وتعليمه لغير الله؛ فهل يترك العلم؟

جواب الشيخ: نقول له: لا؛ يبدأ الإنسان في طلب العلم وهو ينوي الوظيفة به؛ أو التعيين به في كذا؛ أو التصدر به في المجالس، ولكن لا ينفك أن يدلّه هذا العلم عن الله -تبارك وتعالى-، ويورثه الخشية من الله -تبارك وتعالى-، لماذا؟ لأنه كلما قرأ وازداد من التعلم وجد النصوص التي تحث على الإخلاص، وتحذر من الرياء، وما أعده الله -جل وعلا- للمرائين، وما أعده الله -جل وعلا- لمن يريدون بعملهم

(١) أبقينا الأسئلة المتعلقة بموضوع التأصيل، وما سوى ذلك يُطلب من المسموع، والله المستعان.

(٢) عن جماعة من السلف بألفاظٍ متقاربةٍ أوردها ابنُ عبد البرِّ رحمته الله في «جامع بيان العلم» (١/٦٠٠-٦٠٢) تحت باب (الخبر عن العلم أنه يُقود إلى الله تعالى على كلِّ حالٍ)، ونحوه ما أسند فيه عن حبيب بن أبي ثابت رحمته الله (وهو في السير ٤/٤٥٢ عن مجاهد بن جبر رحمته الله): (طلبنا هذا العلم وما لنا فيه نيةٌ ثم رزق الله النية بعد)، وانظر أثر هشام الدستوائي وتعليق الذهبي رحمهما الله عليه في «السير» (٧/١٥٢).

الدنيا، فيخاف ويبدأ في مصارعة نفسه، وتصحيح ما قام، فهذا معنى الأثر (طلبناه للدنيا فأبى أن يكون إلا لله)، قد يطلبه للرياسة، للوجاهة في قومه أو في عصره، أو في مصره، أو للوظيفة، ولكن يأبى الله - جل وعلا - أن يكون هذا العلم إلا لله، لم؟ لأنه نفيس، علم الشريعة نفيس، فلا ينبغي أن يكون سبيلا لنيل الخسيس وهو الدنيا، فالدنيا خسيصة، حقيرة، كلها لا تسوى عند الله جناح بعوضة، الدنيا حقيرة إلا ما كان فيها من ذكر الله وما والاه، فالإنسان لا يطلب النفيس لتحصيل الخسيس! فالشاهد أنه إذا تعلم أورثه ذلك النور في قلبه الذي يدلّه على الحق فيصحح الموقف.

السؤال (٣): وهذا يقول: كيف نخلص لله في طلب العلم؟ وما هي الطريقة المناسبة في حفظ القرآن؟

جواب الشيخ: نقول: تخلص لله في طلب العلم بأن تجاهد نفسك أن يكون هذا العلم لله - تبارك وتعالى - بحيث لا تقصد به الرياء، ولا تقصد به السمعة، ولا تقصد به تحصيل شيء دنيوي؛ وإنما قصدت به:

- أولاً: رفع الجهل عن نفسك؛ لتعبد الله على بصيرة.

- ثانياً: تنفع الناس به، فهذا هو^(١).

فإذا أنت قمت بذلك وترقيت في ذلك؛ فإن الأمر سيكون كما سمعت في جوابنا السابق: إن الأمر سيكون بإذن الله تعالى دالاً لك على تصحيح النية.

والحفظ يكون كما جاء في حديث أبي عبد الرحمن: لا تجاوز عشر آيات حتى تثقنها^(٢)، وعليك أن تصبر، يعني ليس شرطاً أن تحفظ القرآن كما نرى الآن يحفظه في شهر! ويحفظه في شهرين أو شهر ونصف! مسابقات؛ لكن بعد ذلك ينسأه! لا، الحفظ ثم التدقيق لهذا المحفوظ، والناس يتفاوتون في القدرة، والمواهب متفاوتة، وهب الله جلّ وعلا الناس قدرات متفاوتة ومختلفة، فمن آتاه الله قوة حافظة فهذا عائد إليه، ومن كان متوسطاً في الحافظة ودون ذلك، فهذا يكفيه أن يأخذ في اليوم عشر آيات، وعليه بالمواسلة فينقلب بإذن الله بخير كثير.

السؤال (٤): وهذا يقول: هل يجوز لشخص جزائري الجنسية أن يتجنس الألمانية للانتقال

(١) وهكذا قال الإمام أحمد رحمته الله: (ينوي به رفع الجهل عن نفسه وعن الناس) فهذه النية.

(٢) أثر أبي عبد الرحمن السلمي رحمته الله أخرجه أحمد (ح ٢٣٤٨٢) وغيره.

إلى بريطانيا إلى (مركز السلف)؛ لأنه في ألمانيا لا يوجد مدرسة إسلامية؟

جواب الشيخ: أقول له: لا يجوز لك أن تجنس بجنسية الكفار، فعليك أن تبقى على جنسيتك

الإسلامية والله جل وعلا سيجعل لك الفرج والمخرج؛ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق].

السؤال (٥): وهذا يسأل أيضا أنه كثير في هذه الأيام الطعن في المنهج السلفي وحملته؛ كالشيخ

النجمي والشيخ ربيع - حفظه الله -، ويقولون عنهم أن هؤلاء العلماء وغيرهم قد اضطربوا في التعديل

والتجريح؟

جواب الشيخ: أقول: لا تُعرج على هؤلاء ولا تنظر إليهم، إن كانوا يريدون الحق تكلم معهم بحق

وعلم وعدل، وإن عرفت أنهم إنما يريدون المجادلة فدعهم؛ فإن الجدل لا ينفع مع أمثال هؤلاء.

ولله الحمد أهل العلم قبل هؤلاء يعرفون من هو الشيخ العلامة النجمي رحمة الله عليه، ومن هو

الشيخ العلامة ربيع بن هادي حفظه الله وختم لنا وله بخير؛ وإذا عرف أهل العلم فالعبرة بهم، ولا عبرة

بهؤلاء.

السؤال (٦): وهذا يسأل يقول هل تجوز الدراسة عند أهل الريب الذين يهتمون أصول المنهج

السلفي، والعلماء السلفيين في هذا العصر، بل يحذرون منهم؟

جواب الشيخ: أقول: الذي يحذر من أهل المنهج السلفي ومن المنهج السلفي هذا خلفي لا خير

فيه، لا تدرس عنده والحمد لله قد أراك الله ﷻ حقيقة وأظهر لك حاله.

وهذا العلم كما سبق معنا مما خرجه مسلم في مقدمة صحيحه وغيره عن محمد بن سيرين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه

قال: «إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم»^(١)؛ فلا يؤخذ عنهم.

السؤال (٧): يقول: هل هناك مصلحة وضرورة في الدراسة عند أهل البدع بعد أن انتشر العلم في

الكتب المشروحة، وأشرطة الدروس العلمية؟

جواب الشيخ: نقول: أولا: قد أغنى الله ﷻ أهل السنة بأهل السنة، فأنت لست بحاجة إلى أهل

البدع، هذا من ناحية.

لكن لو فرض أنه وجد من يتعلم على مبتدع أو يتردد على مبتدع ليتعلم منه فهذا الكلام فيه؛ فقد بينا

(١) سبق.

لكم أن من تردد على مبتدع - وأنت تعلم أنه مبتدع وهو قد لا يعلم أنه مبتدع - فيجب عليك أن تحذره منه حتى لا يضل بسببه؛ وهذا قد ذكره أهل العلم، ومن أشهر الكتب بين أيدينا وأخصرها كتاب النووي رَحِمَهُ اللهُ: «رياض الصالحين» فإنه ذكر في باب (ما يجوز من الغيبة)^(١) وعدد الأنواع الجائزة من الغيبة وذكر منها: من رأى طالب علم يتردد على فقيه مبتدع وخشي عليه منه فإنه يجب عليه أن يحذره منه؛ فحيث لا يكون هذا غيبة، بل هو من النصيحة، ولهذا قيل: [من الكامل]

والقدح ليس بغيبة في سنة
فذكر من هؤلاء: (المحذر).

السؤال (٨): هل المشاركة في مسابقة حفظ المتون الشرعية من أجل حفظ العلم وتعلمه، أو من أجل أخذ الجائزة ينافي الإخلاص؟

جواب الشيخ: أقول: الأصل أن يكون الحفظ لأجل العلم، لكن لو كنت حافظاً وطُلب منك المشاركة شارك؛ لأن في هذا حفزاً لإخوانك الذين لا يحفظون، فمثلاً: حافظ القرآن يشارك في مسابقة القرآن، حافظ (الأربعين)، حافظ «العمدة»، حافظ «البلوغ»، وهكذا..؛ فإن هذا فيه خير كثير. ولكن لو حفظه على النحو الذي ذكر لأجل هذه المسابقة فنحن نرجو أن يورثه هذا الحفظ بإذن الله -تبارك وتعالى- الخشية التي تدله على الله -تبارك وتعالى- ويجاهد نفسه.

السؤال (٩): وهذا يقول: ذكر الناظم الإخلاص والصدق - لا أدري من هو هذا الناظم لعله يريد شروط لا إله إلا الله^(٢) -، ذكر الناظم الإخلاص والصدق؛ فهل هما بمعنى واحد أم بينهما عمومٌ وخصوصٌ؟ وهل صحيح أن كل صادق مخلص وليس كل مخلص صادقاً، ذكره بعضهم؟

جواب الشيخ: أقول: الإخلاص المنافي للشك، والصدق المنافي للكذب، فإن الإخلاص هذا عند أهل الإيمان، والشك عند من؟ عند أهل النفاق، فهذا الشرط ينافي النفاق، فقد يقول الإنسان بلسانه ما

(١) في (كتاب الأمور المنهي عنها، باب ما يُباح من الغيبة) تحت نوع (تحذير المسلمين من الشرِّ ونصيحتهم).

(٢)

والعلم واليقين والقَبُولُ والصدق والإخلاص والمحبَّةُ
والأنقياد فَادَرِ مَا أَقُولُ وَفَقَّكَ اللهُ لِمَا أَحَبَّ بَهُ

(معارج القبول) للشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهُ (١/ ٣٧٨-٣٧٧).

ليس في قلبه، وهذا أخبرنا الله ﷻ وحكاه لنا من حال المنافقين: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فنسأل الله العافية والسلامة، فالإخلاص منافٍ للشك، والصدق منافٍ للكذب. ولا يمكن أن يكون الإنسان كاذبا ويكون مخلصا بحال من الأحوال، ما يمكن في هذا الباب، يكون كاذبًا في شهادة أن لا إله إلا الله ويكون مخلصًا؟! ما يمكن، هذا حال المنافقين نسأل الله العافية والسلامة.

السؤال (١٠): وهذا يسأل يقول: الذين يطعنون في الجرح والتعديل، ويقولون زمن الجرح والتعديل هو زمن الصحابة، أما اليوم فكل ذلك يعتبر غيبة؛ كيف نرد عليهم؟

جواب الشيخ: الجرح والتعديل ما ظهر في زمن الصحابة، إنما ظهر بعد ذلك، زمن الصحابة زمن الصدق، ولكن لما وقعت الفتن وركب الناس الصعب والذلول قيل: سَمُّوا لنا رجالكم؛ فيعرف أهل السنة فيؤخذ حديثهم، ويعرف أهل البدعة فيؤرد حديثهم، هذا من ناحية.

وأما من ناحية ثانية: أن الجرح والتعديل قد انتهى زمنه! هذا كذب، وقول على الله بغير علم، فالجرح والتعديل لأجل الرواية انتهى، صحيح؛ دُونَ أسماء الرواة في الكتب، ولا نزال أنا وأنت يا طالب العلم وأهل العلم لا نزال إلى الآن نغتاب أناسا قد أصبحوا رَمَمًا وأصبحوا تُرَابًا، نغتابهم لماذا؟ الله -تبارك وتعالى-، للحفاظ على دين الله، هو في القرن الثاني ونحن نقول عنه (كذاب)! هو في القرن الثالث ونحن نقول عنه (دجال)! هو في القرن الثاني ونحن نقول عنه (شديد الضعف)! وهكذا، فنحن نقول هذا للحفاظ لدين الله -تبارك وتعالى-، فهذا لا نزال نقوله إلى الآن في رواة الحديث.

أما ما يتعلق بالبدع وأهلها فأنتم سمعتم كلام من؟ النووي، بين أيدينا كتاب (رياض الصالحين)، إن كان في هذا المسجد فباستطاعتك أن تأتي إليه في باب (ما يجوز من الغيبة): ومن رأى طالب علم يتردد على فقيه مبتدع وخاف عليه حذره منه، نعم، فهذا ليس من الغيبة بل هذا من النصيحة.

السؤال (١١): كيف أتعامل مع بعض أتباع أهل البدع الذين يستهزئون بالسلفيين وإذا دعوتهم إلى التوحيد ونبذ البدع لا يقبلون، وأراهم يستهزئون.

جواب الشيخ: أقول: هؤلاء إذا كانوا كما ذكرت فابتعد عنهم، وإياك أن تقترب منهم فهم شر عليك، لكن لا يمنع ذلك أنك إن اجتمعت بهم في مجلس غير قاصد، جاؤوا تبعاً أن تبذل النصيحة، وأن تحذر الناس منهم.

السُّؤال (١٢): وهذا يقول: نود منك قبول هذا الاقتراح، وهو جمع منظومات الشيخ حافظ الحكمي

صوت وكتابة وترجمة للشيخ حافظ رَحْمَةُ اللهِ.

جواب الشيخ:

أما ترجمة الشيخ حافظ فأنا قد ألقيت فيه كلمة وأظنها سجلت، وموجودة في التسجيلات فلعلكم تعودون إليها، وأما جمع المنظومات فالحمد لله كثير منها الآن في هذه السنوات الأخيرة -خمس سنوات أو نحو ذلك- بدأت تظهر، والشأن ليس في هذا ولكن الشأن في إتقانها، فعليك أن تقرأها على مُتَقِنٍ.

السُّؤال (١٣): وهذا يقول: يا شيخ إني أحبك في الله.

الشيخ: وأنا أقول: أحبك الله الذي أحببتنا فيه، ونسأل الله -جل وعلا- أن يجعلنا وإياكم من المتحابين فيه.

يقول: أسألك أن تنصحني وتذكرني فإني متكاسل عن طلب العلم، وأنام كثيرا، والعلماء والله الحمد متواجدون، وأسأل الله أن يحفظني وإياك بالسنة.

جواب الشيخ: آمين، الذي أنصحك به أن تقلل من الأسباب التي تدعوك إلى النوم: [من الرَّمْل]

وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَا أَبْعَدَ الْعِلْمَ عَلَى أَهْلِ الْكَسْلِ

فأنا أنصحك بالبعد عن الأسباب التي تعين الكسل عليك فابتعد عنها، فمن ذلك: السهر، ومن ذلك: المجالسة للبطالين الذين لا فائدة في مجالستهم، ومن ذلك أيضا: كثرة الأكل؛ فإن كثرة الأكل تورث التُّخْمَةَ وتثقل الجسم، فعليك بذلك.

وأنصحك أيضا بالحرص على عدم الإكثار من النَّزْهِ، (التمشيات) كما يقولون؛ لأن هذه تتنافى مع الحرص على التعلم فإن هذا يذهب معه الوقت، ويذهب معه الخير الكثير، فعليك أن تأخذ منها بقدر؛ من الأكل والشرب الذي يُورث التخمة عليك أن تأخذ منه بقدر، ولا تكثر؛ لأن التخمة تورث حينئذ الإضعاف للإنسان.

وأهم من ذلك كله: الدعاء لله -تبارك وتعالى- أن يرفع عنك، ثم مصاحبة الأخيار: [من الرَّمْل]

وَإِذَا صَاحَبْتَ فَاصْحَبْ مَاجِدًا ذَا حِيَاءٍ وَعَفَافٍ وَكِرْمٍ

هُؤَلَاءِ الَّذِينَ يُعِينُونَكَ عَلَى نَفْسِكَ فَاصْحَبْهُمْ، ولا تصاحب الكسالى مثلك في هذه الحال؛ وأرجو

لك أن تخرج منها بإذن الله -تبارك وتعالى-، وأهم شيء أن تبتعد عن أسباب الكسل: مجالسة البطالين، وكثرة الأكل، والشرب، وكثرة السهر الذي يؤدي إلى كثرة النوم.

السؤال (١٤): يقول: هل يجوز الدراسة في المدارس المختلطة؟ وجزاكم الله خيراً.

جواب الشيخ: لا تجوز الدراسة في المدارس المختلطة؛ لأنك إذا قربت الزيت من النار اشتعل، نعم؛ لأنه:

من التهامس والتلامس والشذئ تتكهرب الأعضاء^(١)

كما يقول الشاعر، تهمس لها وتهمس لك، وتلمسها وتلمسك، بجنبها في الكرسي وهي بجنبك في الكرسي، ثم الشذئ-رائحة العطور- منها؛ تتكهرب الأعضاء؛ فيأتي ماذا؟ البلاء! عياذاً بالله من ذلك: [من الخفيف]

نَظْرَةٌ فَاِبْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءٌ

وهذا بلاء، وهذا الذي ينظر في البلدان التي يكون فيها التعليم المختلط يرى فيها الجريمة أكثر نسبة من البلدان التي لا يوجد فيها الاختلاط في التعليم.

السؤال (١٥): وهذا يسأل عن معنى: «رُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه

منه»^(٢).

جواب الشيخ: المراد به: نَقْلَةُ الأخبار الذين لا معرفة لهم بالاستنباط والفقهِ، فمجرد حافظ آتاه الله من الحفظ وقوة الحفظ ما جعله يحفظ هذه الأخبار حتى يؤديها إلى الفقيه الذي يستنبط منها. وقد يكون مع الحفظ عنده فهم، لكنه لا يصل إلى قوة الآخر، فيكون عنده فقه ولكن ليس برتبة من هو أفقه منه، «فرب حامل فقه ليس بفقيه» هذه درجة، «ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» هاتان درجتان: فقيه وأفقه.

السؤال (١٦): وهذا يسأل عن (المنظومة الميمية) هل هي موجودة في شرح مُسجل؟

جواب الشيخ: نعم؛ مسجل، ولعل الأخ يرجع إلى الإخوة ويسألهم عن ذلك.

السؤال (١٧): وهذا يقول: هل من الأدب الجلوس خلف الشيخ عند المحاضرة؟

(١) البيت من الكامل، ولكنه مكسور؛ فيه سقط.

(٢) سبق.

جواب الشيخ: إذا ما وجد مكانا يجلس؛ ولكن المواجهة أحسن.

السُّؤال (١٨): ثم يقول: هل يجوز مخالفة فترة التأشيرة والبقاء هنا لطلب العلم؟ لأننا بأمس الحاجة

إليه، وبلادنا يكثر فيها الشرك والبدع، ولا يوجد علماء.

جواب الشيخ: أنا أقول لك أيها الأخ السائل: لا تُعَرِّضْ نفسك للمحاسبة والمساءلة، وربما الإهانة، وأعرف من ذلك شيئاً قد وقع، بعضهم يؤدِّي به هذا إلى الإحباط، فنقول له: يا أخي أنت تعرض نفسك للمهانة، والنبى ﷺ قد نهى أن يعرض المرء نفسه للذل والمذلة^(١)، فأنت إذا انتهت التأشيرة انطلق راشداً إلى بلدك، وعُد مرة أخرى، انو بها الرحلة مرة أخرى إن كنت لم تستطع الحصول على إقامة تطلب بها العلم، والذي أنصح به أولاً: أنك تجتهد في تحصيل الإقامة الشرعية الرسمية التي لا يكون لأحد عليك فيها مدخل، فإذا لم تستطع فعد إلى بلدك وكيفيك الذي حصلته، وفي مرة أخرى كذلك، تحصّل إن شاء الله.

السُّؤال (١٩): وهذا يسأل عن الكتب المنتقاة التي يطلبها طالب فن الفقه.

جواب الشيخ: الفقه هو ثمرة النصوص، «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٢): [من الرّجز]

وَبَعْدُ إِنَّ الْعِلْمَ خَيْرٌ مَّقْتَنَى	وَالْفِقْهُ أَوْلَى مَا بِهِ الْعَبْدُ اعْتَنَى
حَظَّ عَلَيْهِ اللَّهُ وَالرَّسُولُ	فِي جَمَلٍ شُرُوحُهَا تَطْوُلُ
فَدُونَهُ لَا يُمَكِّنُ اتِّبَاعُ	أَمْرٍ وَلَا بِالْعِظَةِ انْتِفَاعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ يَفْقَهُ كَيْفَ يَعْمَلُ	بِمُوجِبِ الْأَمْرِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ

الفقه هو ثمرة النصوص، والله - جل وعلا - ما جعل الرحلة في طلب العلم إلا لأجل الفقه،

والتفقه في دين الله؛ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا

إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ [التوبة].

فالشاهد أقول: الفقه هو ثمرة النصوص، فالكتب التي أنصحك بها صعب جداً أن أقول لك؛ لأنني لا

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» قِيلَ: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ح ٢٣٤٤٤) وَالتِّرْمِذِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٢٥٤) مِنْ حَدِيثِ حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ «مَنْ يُرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ» ح ٧١)، وَمُسْلِمٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ ح ١٠٣٧) مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أعرف البلد الذي أنت فيها، فأقول: هذا عائد إلى الإنسان والبلد الذي يكون فيه، فإن كان في بلد السائد فيه الفقه الشافعي بدأ بمتن فيه، وإن كان المالكي كذلك وإن كان الحنبلي كذلك، وهكذا. وإن حفظت منظومة «السُّبُلِ السَّوِيَّةِ لِفَقْهِ السَّنَنِ المَرْوِيَّةِ»^(١) فهذا عندي أحب، فهذه المنظومة نافعة جدا، وقد قلت مرارا: أنا ضامن لمن حفظها وأتقنها أن يكون فقيها.

وهذه المنظومة هي التي يقول فيها ناظمها رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: [من الرجز]

وَبَعْدُ فَالْأَدْلَةُ الشَّرْعِيَّةُ فِي جُمْلَةِ الْفَرَائِضِ الدِّينِيَّةِ
يَنْبُغُهَا هُوَ الْكِتَابُ الْمُقْتَفَى وَسُنَّةُ الْهَادِي الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى
وَهَذِهِ أَرْجُوزَةٌ يَسِيرَةٌ جَامِعَةٌ لِحُجْمَلِ

ألفان وثلاثمئة وتسعة وخمسون بيتًا، (أرجوزة يسيرة) ! وهي يسيرة نعم؛ (جامعة لجمل كثيرة).

جَعَلْتُهَا إِشَارَةً إِلَيْهَا تَدُلُّ كُلَّ رَاغِبٍ عَلَيْهَا
وَاللَّهُ أَرْجُو الْمَنْ بِالْإِكْمَالِ وَالْعَوْنُ وَالتَّسْدِيدُ فِي الْمَقَالِ

إذا نظرت فيها وجدتها جامعة، فأنا أنصحك بحفظها، فمثلا: إذا جئت إلى الطهارة؛ لخص لك كلام العلماء في حديث رسول الله ﷺ في أبيات قليلة جدا، إذا حفظتها لا تكاد تخرج أصول الطهارة عنها.

الْأَصْلُ فِي الْمَا كَوْنُهُ طَهُورًا
مَنْ بَثِرَ أَوْ بَحِرَ وَثَلَجَ أَوْ بَرَدَ
فِي أَنْ نَجَاسَةٌ عَلَيْهِ قَدْ طَرَتْ
أَخْرَجَ عَنْ ذِي الْوَصْفِ بِالتَّغْيِيرِ
أَوْ لَمْ تُغَيَّرْ فَالكَثِيرُ بَاقِي
وَأَرْجَحُ الْأَقْوَالَ فِي التَّحْدِيدِ
وَفِي الْكِتَابِ جَاءَ ذَا مَسْطُورًا
أَوْ غَيْرَهَا كُلُّ بِهِ النَّصُّ وَرَدُ
لِأَحَدِ الْأَوْصَافِ مِنْهُ غَيَّرَتْ
حُكْمًا عَلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ
وَقِيلَ بَلْ يَبْقَى عَلَى الْإِطْلَاقِ
فِي قُلَّتَيْنِ قُلُّ بِلَا تَرْدِيدِ

وهكذا، يأتي إلى الكلام الطويل في الخلع وهل هو فسخ أو هو طلاق، وخلاف أهل العلم في ذلك، والأدلة الواردة فيه، إن لخصته تلخصه في أقل من ثلاث صفحات بأدلته، يأتي ويقول لك:

وَالخَلْعُ فَسْخٌ لَا طَلَاقٌ فِي الْأَصْحِ تَعْتَدُ حَيْضَةً كَمَا الْحَدِيثُ صَحَّ

يأتي في سكنى البائن:

(١) لِلشَّيْخِ الْعَلَامَةِ حَافِظِ بْنِ أَحْمَدَ الْحَكَمِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، طُبِعَ مَعَ شَرْحِهِ (الْأَفْئَانِ النَّدِيَّةِ) لِلشَّيْخِ زَيْدِ الْمَدْحَلِيِّ حَفِظَهُ اللهُ، عَنْ دَارِ الْمَنْهَاجِ بِالقَاهِرَةِ.

وَلَيْسَ لِلْبَّائِنِ مِنْ سُكْنِي وَلَا
لِمَا رَوْتَهُ أُمَّ قَيْسٍ وَنُقُلٍ
مَنْ قُوتٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا
عَنْ عُمَرَ خِلَافُهُ وَقَدْ أُعِلَّ
صَرَفَ (عُمَرَ) لِلضَّرُورَةِ الشُّعْرِيَّةِ.

وَأَكْثَرُ الصَّحْبِ لَهَا قَدْ جَعَلُوا
سُكْنِي وَلِلْحَدِيثِ قَدْ تَأَوَّلُوا
فَجَمَعَ لَكَ الْكَلَامُ كُلَّهُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الثَّلَاثَةِ أَوْ الْأَرْبَعَةِ، يَسِيرَةً جَدًّا؛ أَنَا ضَامِنٌ لِكُلِّ مَنْ اتَّقَنَ هَذِهِ
الْمَنْظُومَةَ أَنْ يَكُونَ فَقِيهَا.

السُّؤَالُ (٢٠): يقول: **نكون في بعض القرى، ونحن طلاب علم في بداية الطريق، وهذه القرى تحتاج إلى نشر العقيدة والسنة، فهل إذا أقدمنا على نشر العلم يكون هذا تصدرا؟**

جواب الشيخ: لا؛ أنت تعلم بما رزقك الله ﷻ، فهذا التعليم منك لهؤلاء لما علمته من العلوم التي من الله بها عليك، فتؤدي إليهم الذي عرفته وأتقنته وحفظته، ماداموا أقل منك وهم بحاجة فيجب عليك البيان، لاسيما إذا كان كما ذكرت عندهم بعض الأشياء، وبعض الشرك، وبعض الأمور المخالفة في العقيدة؛ فعليك أن تبين لهم.

السُّؤَالُ (٢١): هذا يقول: **يخلط بعض طلاب العلم بين كثير من الأمور كالتواضع والذل، وكحسن السمات والغرور، وكانفع للمسلمين والتصدر.**

جواب الشيخ: نقول: حسن السمات مطلوب، وحسن السمات هو الوقار، وقار طالب العلم، على طريقة أهل العلم، (تعلموا العلم وتعلموا له الوقار؛ فإن للعلم وقارا)^(١)، ما يكون الشَّخْصُ سفيها، خفيفا، طياشا، نعم؛ إذا جلس في المجالس أساء إلى العلم وإلى أهل العلم بحركته وبفعاله ومقاله! هذا لا يحسن بطالب العلم؛ فحسن السمات مطلوب، وحسن السمات لا ينافي التواضع، حسن السمات ولزوم الوقار لا ينافي التواضع.

فأقول: ليس معنى ذلك أن حسن السمات طريق للعجب أو إلى التكبر، لا، بل إن حسن السمات هو الوقار الذي يبدو، والهيبة التي تكون على أهل العلم، وطلبة العلم، وهذا يؤدي إلى توقيير الناس للعلم، كما أن الصورة الأولى تؤدي إلى استخفاف الناس بالعلم وبحملة العلم^(٢).

(١) عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَحْوَهُ، سَبَقَ ص (٤٨ حَاشِيَةً).

(٢) يَقُولُ الْقَاضِي عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيُّ (ت ٣٩٢ هـ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [مِنْ الطَّوِيلِ]

السؤال (٢٢): وهذا يسأل أيضا - تقدم الجواب عليه - عن شرح للمنظومة (الميمية)؟

جواب الشيخ: أنا لا أعلم شرحا مكتوبا؛ لكن علّقنا تعليقا خفيفا عليها فيما هو مسموع، فعليك أن تنظر فيه، فما وافق الخير والحق فالحمد لله، وما قصر عنه فإنك تبحث أنت عنه.

السؤال (٢٣): هل (الميمية) المطبوعة في كتاب الدورة مضبوطة؟

جواب الشيخ: هذا نحن اجتهدنا بقدر الإمكان، ومع ذلك وقع بعض الأخطاء وصححناها في أثناء القراءة.

السؤال (٢٤): وهذا يسأل يقول: يا شيخنا الفاضل، أرجو منك دعوة الله - تبارك وتعالى - لي بالشفاء؛

فأنا مريض البدن والقلب، واسأل الله أن يهديني هداية للتوفيق، ولا تنسنا بظهر الغيب.

جواب الشيخ: نحن نسأل الله ﷻ لنا ولأخينا الشفاء ولكل مريض المعافاة من الأدوية والأسقام، ونوصيه هو أيضا بدعاء الله تبارك وتعالى، ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فالإنسان عليه أن يكثر هو من دعائه لله - تبارك وتعالى -، كما أسأله ﷻ أن يهدينا وإياك، وأن يهدي قلوبنا، وأن يثبتنا وإياكم جميعا على الحق حتى نلقاه، وأن يجنبنا وإياك مضلات الفتن.

وابتعد عن أسباب زيغ القلب، وذلك بالنظر المحرم، وبمصاحبة البطالين، وبمصاحبة الفسقة، والنظر إلى الفجرة والفسقة والكفرة والنظر إلى المرد ونحو ذلك؛ فإن هذه من الأسباب التي تمرض القلوب: [من البسيط]

ومعظم النار من مستصغر الشرر
كل الحوادث مبداها من النظر
فتك السهام بلا قوس ولا وتر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها

وما زلتُ منحازًا بعرضي جانبا
من الدّم أغتد الصيانة مغنما
أأشقى به غرّسا وأجنيه ذلّة
إذن فاتباع الجهل قد كان أخزما
ولو عظم مؤه في النفوس لعظما
لوان أهل العلم صانوه صانهم
محيّاه بالأطماع حتى تجهّما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا
كبا حين لم يحرس جماه وأسلما
فإن قلت جد العلم كاب فإنما

ديوانه (١٢٧) ط: دار البشائر - سورية.

نعم؛ إلى أن قال:

لا مرحبًا بسرور عاد بالضَّرِّ

نعم؛ فعليك أن تتعد عن الأسباب، فإنك إن ابتعدت عن هذه الأسباب فإنك قد وفقت إن شاء الله.

السُّؤال (٢٥): **ويسأل أن نعيد شرح « ينفون عنه تحرف الغالين وانتحال المبطلين »^(١).**

جواب الشيخ: نعم، فهذا قد بيناه في حينه، ولا بأس، المراد بأهل السنة والحديث أنهم حراس هذا الدين، وأنهم ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين، الغلاة: الذين حرفوا الدين، وغلوا فخرجوا عن السَّمْت الذي جاء به النَّبِيُّ ﷺ، هُوَ لاء غلاة، فينفون عن دين الله الغلو فيه. مثل ما جاء في حديث الثلاثة الذين جاءوا إلى أبيات النبي ﷺ فسألوا عن عبادته فكأنهم تقالُّوها، فقال أحدهم: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أقوم ولا أرقد، وقال الآخر: أنا لا أتزوج النساء؛ هذا غلو نبه عليه النبي ﷺ فقال: « أما إني أخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أقوم وأرقد، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني »^(٢).

فالغلو في الدين ممقوت، كما أن التفریط في الدين أيضا ممقوت، والله ﷻ قد جعل من الثلاثة الذين إجلالهم من إجلاله - جل وعلا - حامل هذا القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه؛ « ثلاثة إجلالهم من إجلال الله » من هم؟ قال: « ذي الشيب المسلم، وذي السلطان المقسط، وحامل القرآن غير الجافي عنه ولا الغالي فيه »^(٣)، فالغلو في الدين منبوذ ومذموم، وهكذا التفریط كذلك مذموم، فأنت لا تفرط ولا تفرط، وإنما تكون وسطا، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ فما جاءت هذه الخيرية إلا بسبب الوسطية، فالغلو (لا)، والتفریط (لا)؛ ولكن بين ذلك.

السُّؤال (٢٦): **وهذا يسأل: هل الدراسة وعمل الرجل في الاختلاط لا يؤاخذ عليه؛ لأن أصل المرأة**

(١) الحديث المشهور: « يَحْمَلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُوْلُهُ.. » أخرجه الأَجْرِيُّ في الشَّرِيعَةِ (ح ١ و ٢) والخطيبُ في شَرْفِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ (ح ٥١ و ٥٢) ونقل عن أحمدَ تَضَحِيحَهُ وانظر تَخْرِيجَ الْمَشْكَاةِ لِلشَّيْخِ الْأَبَانِيِّ (ح ٢٤٨).

(٢) أخرجه البُخَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (كتاب النِّكَاحِ، باب التَّرْغِيبِ فِي النِّكَاحِ، ح ٥٠٦٣)، ومُسْلِمٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (كتاب النِّكَاحِ، باب اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ، ح ١٤٠١).

(٣) أخرجه أبو داود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، ح ٤٨٤٣) من حديث أبي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: « إن من إجلال الله .. » وحسنه الشَّيْخُ الْأَبَانِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أن تبقى في بيتها، هل هذه الحجة صحيحة؟

جواب الشيخ: أنا ما فهمت هذا السؤال - هذا عبر الشبكة أيضا - أنا ما فهمت هذا؛ على كل حال: الكلام للرجل وللمرأة المكلفين، الكلام للمكلفين؛ رجلا كانوا أم نساء؛ فهم مؤاخذون على ذلك، يعني الرجل له أن يمنع موليته من الخروج للاختلاط، يمنعها لأنه قائم عليها؛ ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، فهذا له؛ حق القوامة إليه، يمنعها من الدخول في هذا العمل، كانت زوجة له أم أما أم أختا أم بنتا؛ فإنه يمنعها من هذا.

السؤال (٢٧): وهذا يقول: نشكرك على ما قدمت لنا، وبارك الله فيك.

جواب الشيخ: وأنا أقول: أسأل الله - جل وعلا - أن يبارك في الجميع، والشكر لله - جل وعلا - أولا وأخرا؛ إذ هو الذي متعنا بالصحة والعافية، ومنّ علينا وعليكم بذلك، فله الحمد وله الشكر - تبارك وتعالى -.

ثم يقول: أرجو منك أن تجيب عن هذا السؤال، وهو: هل تنصح الطالب الذي لم يدرس مذهبنا بدخول كلية الشريعة من حيث أنه سيدرس الفقه المقارن؟

أنا أقول للطالب: ادخل كلية الشريعة، وتوكل على الله تبارك وتعالى.

السؤال (٢٨): وهذا يسأل أيضا عن أن أسمى له في كل فن عالما يذهب ويأخذ عليه.

جواب الشيخ: هذا صعب عليّ.

السؤال (٢٩): وهذا يسأل يقول: هل الدراسة في كلية الشريعة تعتبر دراسة تأصيلية؟

جواب الشيخ: نعم؛ الدراسة في كلية الشريعة دراسة تأصيلية، فالإنسان يحصل فيها أصول العلوم.

السؤال (٣٠): وهذا يسأل عن الدراسة في الجامعة التي تدرس العقيدة الأشعرية؟

جواب الشيخ: إذا كان يعلم العقيدة الأشعرية، ويعرف ما عليها من مؤاخذات، ويعرف مذهب الأشاعرة واعتقادهم، ولا يجد إلا هذه الجامعة؛ جاز له أن يدرس فيها، ويحذر هذا الذي ذكر، والله الحمد هو عارف، فهذا مثله مثل الذي ذكرنا: من رأى طالب علم يتردد على فقيه مبتدع وخاف عليه أن ينخدع به - يفتتن به، يضل بسببه - فيحذره منه، ما دمت عارفا والله الحمد العقيدة الأشعرية ومذهب الأشعرية وعارفا طرائق هذا المذهب المنحرف فلا بأس لك أن تدرس، مع الحذر كل الحذر من هذا الباب.

السؤال (٣١): وهذا يسأل بعد أن قال: نشهد الله على محبتكم فيه، يقول: كيف يجمع الطالب بين

حضور الدروس والامتون العلمية وبين حفظ القرآن؟

الشيخ: ونحن نسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياه من المتحابين فيه.

الجواب: يجعل للوقت تقسيماً فيقسم منه جزءاً للحفظ، وجزءاً منه للحضور، فإذا وفق لذلك؛ فقد وفق للخير الكثير، وإن لم يستطع أوقف الحفظ هذه المدة حتى ينتهي من الدرس ثم يعود بعد ذلك إلى حفظه، والغالب أن الحفظ لا يكون إلا وقت هدوء البال، وهذا غالباً في الفجر، أو في آخر الليل، فحينئذ ما تكون في هذا الوقت دروس، فعليه أن ينطلق، ويستعين بالله ﷻ، فإن كان يشق عليه هذا وهذا، بدأ بتقديم حفظه حتى يتقن حفظه، ثم ينطلق بعد ذلك إلى التفهم، كما ذكرنا:

اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِفْظَ وَالتَّدْقِيقَ وَالتَّفْهِيمَ^(١)

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه

بإحسان.



(١) سبق.